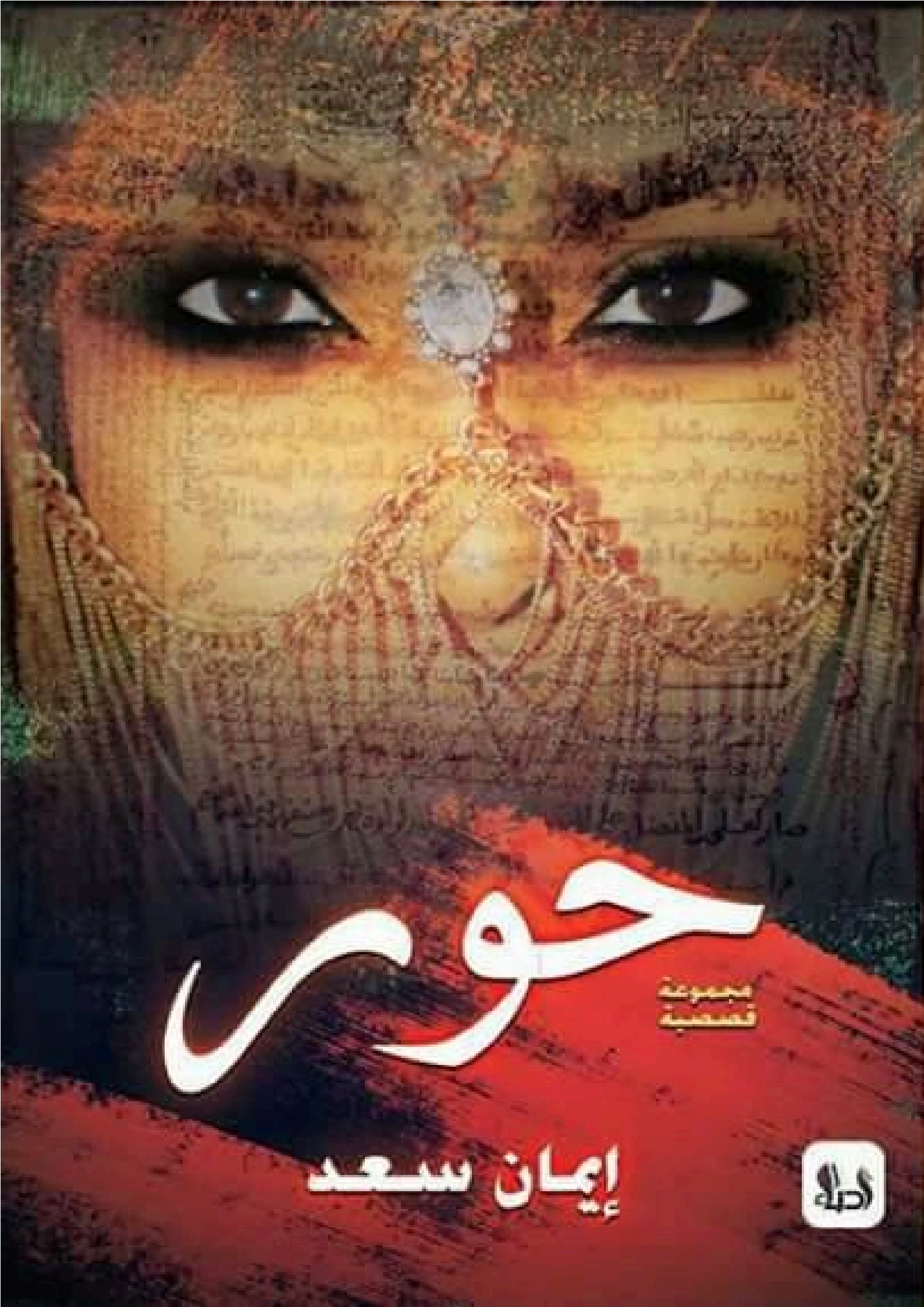
حور
مجموعة قصصية
إيمان سعد

إهداء

إلى تلك الليالي التي لا تنتهي بأنينها وأوجاعها، إلى كل روح معذبة تشتاق لزوال همها، وشجونها.

إليك أيها الصبح الذي تباطأ في الوصول إلينا بكل الحب والشوق المنتظر.....

إيمان سعد

" غدر ذات ليلة "

أطلق يده لعنان السماء ظنًّا منه أن النجوم ستبتهج بملامستِها، إنها اللآلئ التي لم تصل لها يد ولم تقع تحت وطأة آدمي بعد،

كيف لها أن تفكر في هذه اليد الممتدة ولو قليلًا؟ ؛ فحتمًا ستنهار اليد وتتراخى..مستسلمة للأقدار.

عندما يئس من مجاراة تلك النجوم، نظر نظرة عابرة على القمر، تخيل مع نفسه وهو مُمدد على تراب الطريق المُبَلّل بالندى..

تخيّل وجود كهف عميق..كبير الحجم..من يدخله لا يخرج منه أبدًا .

ألهذا الحد يتسع الكهف لابتلاع جميع كائناته المخيفة والمتوارية عن العيون؟ !كيف هو شكلها؟ تكوينها؟ أحقًّا حياتنا على الأرض احدى الحيوات الموجودة داخل الكون؟؟

إن خالق الأرض بأسرارها وخباياها وأشجارها فارعة الطول وغاباتها... حيواناتها...وطيورها هو بذاته من وجد النجوم المتلألئة فوقي وعلى امتداد بصري ... يا للهول ما هذا؟ !إنه شهاب يخترق الجو الهادئ..يتحول إلى كتلة من الجحيم، ينتظر هو الآخر فرصة الاقتراب من أحد شياطين الجن لحرقه ...أحقًّا كان هذا

الشيطان يسترق السمع؟ .. أيعرف جرمه وعقابه؟ بل والأدهى يصر على تكرار الأمر بالاتفاق مع بني جنسه....

دارت جميع الأفكار برأسه دفعة واحدة، تتلاحق وتتقاذف الواحدة تلو الأخرى كأنهم في سباق مفتوح لا نهاية له.

فأكمل : إني لأشعر بالحزن على تمددي ها هنا على الثرى وسط الضفادع والقوارض، لا أستطيع النهوض لاستكمال طريقي ... فقواي خارت لم يبق لها وجود حتى أمل الوصول لنهاية الطريق لم ينجز بعد..لقد ضللت الطريق وفاتني رفاقي حتى الفتاة التي عشقتها ولم أحن لغيرها تركتني وذهبت مع صديق ...أيستحق أن يطلق عليه لقب الصديق؟ !لا أعرف،

لعلها تزوجته أو تركته ورحلت مع غيره كما فعلت معي .. واحسرتاه حتى المعاني الجميلة لم يعد لها وجود .

أنا الآن في غابة من الوحشة والضياع بين تأدية واجبي لوطني وحراسة أرضه وبين ما تركته خلفي ...انتظرت قدري ولم ينتظرني

...انتظرت قافلة الحنين لكنها رحلت مواربة الأبواب حتى دنوت منها فأغلقتها بوجهي شر إغلاق....لعلني سكرت دون احتساء أم ذبت في ضوء النجوم الذي لولاه لكان الكون كستارة سوداء تشبه لياليا المؤلمة

...أأنا مخمور أم ماذا؟ !

عليّ أن أنهض الآن فقد حان وقت عودتي وتبديل الحراسة على المكان، ولابد أن عزّام مُقْبل لاستلام الحراسة

..أيها الوجع القابع بداخلي ألا ترحل لحظة؟ ...ألا تتركني أستمتع ولو قليلًا ...أم أنك تُصِر على قهري بكل السبل، حتى عملي الآن في وحدتي العسكرية يحتاج إلى الصبر والعزيمة والتيقُّظ دائمًا.

ربما ذات يوم ....ستأتي الراحة من حيث لا أدري.

أقبل عزام على فؤاد، فقد حان وقت عودة فؤاد لثكنه وتسليم الحراسة لعزام

...حقًّا إن عزام يستحق عن جدارة اسمه ولقبه ...وحش كاسر

...حاد النظر خصوصًا في نوباتِ الحراسة الليلية أيجرؤ أحد على الاقتراب من موضع تواجده؟ ومع ذلك فهو طيب القلب يمد يد العون لمن أراد، ولا يتوانَ عن مساعدة إخوانه بالوحدة العسكرية ...يستمع للجميع ولم يشتكِ من شيء على الإطلاق، بل يفخر لخدمة وطنه ولو كلّفه الأمر إزهاق روحه.

لكنه لم يدرك وهو يحادث نفسه أن تلك ستكون آخر ليلة يشهدها بحياته مع زميله عزام ...فقد تسلل أحد العناصر الإجرامية لزرع قنبلة بموضع الكتيبة التي ينتميا إليها

...إنها تقبع بموضع حسّاس يتم حمايته لعدم اختراق شخص غريب لحدود البلاد...

اقترب عزام وقال لفؤاد :هلم يا فؤاد ... فلقد انتهى وقت حراستك.

ردّ عليه فؤاد قائلًا :أتعلم ..أشعر بضيق، صدري مقبوض..أحس بقربِ وقوع شيء ما ...فليحرسنا الله ولتمر الليلة على خير ...كم أتمنى طلوع النهار دون وقوع ما يؤسف له .

قال عزام: إن الله يشملنا برعايته، نحن نغوص جميعا في كنفه...

كم هو رحيم علينا ولا نعلم ما يُخبِّأه لنا...تخلى عن مخاوفك هذه وارحل قبل ان يتنبه أحد .ألا تشعر بالتعب؟ !اذهب لتغفو قليلًا .

تمهّل فؤاد قليلًا علّه يمكث مع زميله بعض الوقت ولكن عزام كالأسد المغوار لا يحتاج العوْن والمساعدة فهو بألف رجل وبألف حارس .

ابتسم فؤاد قائلًا :أراك صباح غد ....وليحرسك الله.

عند مغادرته لم يتخلّ عن مخاوفه وهواجس نفسه، لكنه مضطر للمغادرة تاركًا زميله لأداء عمله.

استعدّ عزّام للطوَفان حول مكان حراسته للإطمئنان على أمن المكان وأنه لا يحوم حوله أي حائم ضال ...وأثناء التفافه حول بوابة الحراسة لمح من بعيد شبح أسود لا يرى منه شيئًا، يرتدي ملابس مموهة لا تتراءى للبعيد ولا تَنُم عن شخص مرتديها كما أنه يرتدي حذاء برقبة طويلة تمتد حتى ركبتيه وقد قام بلف رأسه كاملًا لا يظهر من رأسه سوى عينان حادة تصوب النظر إليه ..

لاحظه عزام فبادره بقوله :اثبت مكانك وأعرب عن نفسك .

فلم يتلق أي جواب بل لاحظ اندفاع الشبح الملثم نحوه بكل قوة؛ فاتجه بدوره إليه وهو يردد بأعلى صوت له :حرس سلاح ..... حرس سلاح.... وكانت آخر ما لفظه في تلك الليلة وبعدها دوّى الانفجار الذي اهتزت له المنطقة كلها.

أفاق الجميع على ما حدث وكانت كل الوحدات تهرول من اتجاه لآخر والنيران المشتعلة تشتد وتستعر ولا يعلم أحد حقيقة ما حدث للتو ...ولا عدد الضحايا ...حتى المنتحرين لا يقف أحد على حقيقة أمرهم ...كيف تسللوا إلى مقر الوحدات العسكرية؟ ... !وهل هناك من ساعدهم في ذلك الأمر؟ ... !أم ماذا؟ ... !كانت الأسئلة تدور في الأذهان ولا إجابة لها... !

عندما وصل خبر الانفجار لمسمع فؤاد على الفور حمل سلاحه واتجه ناحية بوابة الحراسة التي ترك عندها زميله عزام يتمنى من صميم قلبه أن يجد زميله كما تركه

، لكن شعور يخالجه بشيء مضاد لما يتمناه، ما يخشاه قد وقع بالفعل وانتشرت الفوضى في المعسكر بأجمعه ...

ردد فؤاد : ويحي ألم أتنبه؟ !لقد وقع بصري حقًّا على شيءٍ ما يحوم بالخارج لكن الظلمة

، يا للعنة ...لترحمني يا الله، أنا سبب ما حدث، لقد تغيبت عن الوعي وفقدت صرامتي حين اختلطت هواجسي بالسماء وأفلاكها، ويحي ....فلتسامحني يا عزام، أنت البريء كغيرك دائمًا، يقع لك هذا كما وقع لغيرك دون أدنى ذنب تقترفه، ليتي لم أتركك،

ليتني لم أتحرك حتى أموت معك، يا الله ما هذا الجنون الذي يجتاحني فلتصمت يا ضميري الآن فنحن في أوج الشدة وأحتاج لاستعادة وعيي الغائب ..

وصل فؤاد إلى موقع الإنفجار ليقع بصره على أشلاء وقطع من جسد زميله وآخرين أيضًا،

إن هذه القطع المترامية هنا وهناك لا يصدق آدمي أنها لشخص مثله جسده كجسده تتشابه الأعضاء معه

، ألم يشعر من نفذ هذا بالخزي والعار على ضياع إنسانيته، أكاد أجزم أن الحيوانات المفترسة لا تفعل ذلك مع فرائسها بل تخنقها قبل افتراسها وهكذا يستمر نظام الكون الأبدي

، أما نحن البشر فبكل سهولة يقنع نفسه أن قتل هذا أو ذاك جائز لمجرد اختلافه معه بالرأي أو الديانة أو ربما لجنسيته ولطالما قام بتبرير فعلته بإنساب نفسه لمذهب وشريعة تبيح قتل وهتك أعراض الآخرين

وبكل حماس ودون تردد يذكر، بل والأدهش هو اقتناعه وغلبته على ضميره في ذلك، إن تلك الأشلاء التي أراها لهي أطهر من كل المخلوقات الإنسية، ليتني لم أتركك يا عزام ...

كيف سأقابل والدتك؟ كيف سأنظر إليها؟ أتتجرأ عيناي أن تواجهها؟ لا لن أستطيع، فلتبتلعني الأرض، لكن مع ذلك لن اترك حق لك يضيع يا عزام...سأنتقم لك وللبقية وليساعدني الله في تحقيق ما عزمت عليه .....قالها فؤاد وقلبه ينتفض من الأسى.

انقضى اليوم بأكمله في تجميع أشلاء الضحايا وتم التعرف على أشلاء شخص غريب وسط أفراد الحراسة المسلحة، لكن لم يتم التوصل إلى انتماءاته أو تحديد جماعته وهويته بالتأكيد هذا منفذ الهجوم الإجرامي .

..فلتذهب إلى الجحيم أنت ومن ساعدك في فعل ذلك ...ولن تجفل لي عين حتى أقض على أعوانك وأقتص منهم من أجل رفيقي لن أترك حقا له يضيع ... رددها فؤاد أمام زملائه بكل شراسة .

اتفق جميع أفراد الوحدة على توصيل جثث زملاءهم ودفنها بأيديهم والثأر لهم من أولئك الأوغاد، فقد ذهب فؤاد لقائده وطلب منه الإشتراك مع الحملة الموجهة لقلب الصحراء وبطن الجبل فوافق القائد على ذلك عندما رأى نظرة الإصرار والعزيمة في عينيه.

اتّجه فؤاد حاملًا سلاحه الخاص به وسط مجموعته للبحث عن أثر هؤلاء الأوغاد المتربصين لحراس بلاده وشعر بالارتياح يجتاحه شيئًا فشيء وكانت سعادته وفرحته الكبرى حينما تراءى له ذلك الوكر العكر الذي يضم الذئاب والخنازير المدججة بالسلاح، لقد حانت اللحظة للقضاء عليهم والتخلص منهم في ضربة واحدة.

اشتعلت المعركة لمدة ساعتين، بتبادل إطلاق النيران من الجانبين ...كُلٌّ بدوره يأمل للقضاء على خصمه وربحه للجولة وظهرت شجاعة فؤاد حينما قام بقتل خمسة أفراد منهم واجتياح الوكر يتقدم زملاءه دون أخذ الحيطة والحذر مما يحدث له.

كل ما كان يشغله هو الأخذ بثأر زميله الذي تحدث إليه قبل موته بلحظات قليلة، فهذه اللحظة الفاصلة للقضاء على تلك الحثالة الهائمة في الصحراء تلك الحثالة التي تقضي على الأخضر واليابس دون تفرقة بين ما هو آدمي أو غيره.

الآن قد انقض حساب فئة صغيرة فقط منهم لكن البقية الخافية تتوغل وتنخر كالمرض في العظام لا تكف أيديهم عن محاولات التخريب والقضاء على أمم بأكملها .

علينا جميعًا التكاتف لوقف هؤلاء والقضاء على شوكتهم إلى الأبد.....

ارتاح قلب فؤاد لما حققه وهدأت نفسه لبعض الوقت وهمس قائلًا .. استرح في قبرك يا عزيزي عزام

، إنني لم أعرفك حق المعرفة لكن المبدأ لا يتجزأ، أنت زميلي ولك حق عليّ وقد أخذت حقك من رقاب الغادرين

.نظر إلى السماء يخيل إليه رؤيه ابتسامة صافية من وجه عزام الملائكي كما رآه قبل وفاته.

تمـــــــــــــت

" جارية موسى[1]"

استأذنت الجارية" حور "من حارس الباب ليخبر مولاه برغبتها لرؤيته؛ فقد عاد سيدها" موسى "لتوِّه من الخارج بعد غيبة

[1] موسى بن النصير فاتح وقائد عسكري ولد عام (٦٤٠م-١٩ ه) أصبح واليا على أفريقية في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك .

استمرت قرابة أربعة أشهر يستأنف فيها فتح بلاد الأندلس مع القائد طارق بن زياد

.إنها تريد رؤيته ولو قليلًا من الوقت تأنس به وتذهب وحشتها التي لم تهدأ إلا بعد علمها بقدومِهِ سالمًا من حروبه الدائمة التي لا تنقطع

.دخل الحارس وتركها بالباب حتى يعط سيده الأمر لها بالدخول ولم يمض الكثير حتى خرج وسمح لها بالدخول

.دلفت حور إلى الغرفة التي تعرفها جيدًا وتحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، فلطالما جالست سيدها تغني وتعزف له أجمل الألحان، تحاول ارضاءه واستمالته

، لكنه يعتبرها كأي جارية أخرى لا تزيد ولا تنقص عن الأخريات، أما هي فتتمنى عدم مغادرته والجلوس أسفل قدميه حتى موتها،

إنها تعشقه بكل قطرة دم بها وبكل كيانها الحالم الذي لم يتوقف قط عن مغازلته.

عندما رأت سيدها يقوم بتبديل ملابسه انحنت أمامه بكل رقة وقالت :اسمح لي سيدي أن أساعدك في خلعها.

نظر إليها موسى بود وقال لها :ما الذي أتى بك يا حور في هذه الساعة المتأخرة؟ !ألم يداهمك النوم بعد؟ !أم تشعرين بأرق يتعارك مع النوم فيغلبه!

ابتسمت حور، اقتربت من سيدها تساعده في إزاحة ملابسه الفوقية، قالت له :بل لم يأت النوم لي أبدًا منذ خروجك من البيت للغزو وحتى عودتك الساعة، كنت قلقة عليك أخاف أن يصيبك مكروه فأموت من الغم عليك....

ضحك موسى بصوتٍ عالٍ، ينظر لأعلى، يقول :أتحبينني كل هذا الحب يا حور؟ !ألم تحاول إحدى الجواري قتلك أو التخلص منك بسبب ذلك الحب.

- بل حاولن جميعهن دون جدوى ....فحبي لك أقوى من الموت والقتل ولكن ألا تشعر تجاهي بمثل ما أشعر به؟
- أنا أحبك يا حور، كما أنك مسامرتي المفضلة ألا يكفيك هذا؟

-لا يكفيني .... ألا تفعل ما هو أفضل لي ولك يا مولاي..

-وما هو يا حور؟

- تتزوجني وأعيش تحت قدمك للأبد، فأنا لا أريد سواك، ألا أحرك فيك شيئًا؟ !إنني فتاة جميلة، تسابق عليّ الكثير من الأغنياء لشرائي من السوق وتداولني أمراء وحكام الروم قبل قدومك فاتحًا، لكنني لم أشعر بنفسي إلا بين يديك أنت.

- ولماذا لم تشعري به مع غيري من الأغنياء؟
- لأنك زهدت فيّ وفي غيري من الجواري، كما أنك تعاملنا بلطفٍ بالغ وبقلبٍ رقيق رغم أنك رجل حرب محنك، تقاتل وتدافع وتأسر الأقوياء

- ، لا تُفرِّق بيننا كجواري لك وبين أهل بيتك وتخشى علينا كخشيتك على نفسك أما ما قبلك فكل مشاغلهم هو المتعة الجسدية فقط ولا يتوانون عن قتلنا كعبيد إذا حانت الفرصة لهم وهم مخمورون.
- وماذا بعد يا حور؟

- ألم تغير اسمي من مارين إلى حور وذلك بسبب بشرتي ناصعة البياض وقد تقبلت اسمي الجديد في الحال، فرحة به وبك.

- إن الأسماء الأمازيغية[2] تتبدل إلى عربية حتى يسهل نطقها وانتشارها، كما أن حور أجمل بكثير من مارين هذا.

-أنا لا أكترث للأسماء ما دمت بجانبك يا مولاي .

- حور أريد أن أخبرك بأمر مهم قد أثقل قلبي ولكني مضطر لفعله لكسب ثقة الخليفة في الشام وأريدك أن تساعديني فيه.
- فلتأمر يا مولاي وسيدي وحبيب قلبي، ماذا تريد مني؟
- صمت موسى قليلًاثم استأنف حديثه قائلًا لها :
- لقد طلب مني الخليفة بعض الهدايا والجواري وأراد مني أن أنتق له أفضل الجواري لمرافقته في قصره وتسليته بشكل يليق بمنصبه ولابد من انتقاء الأفضل له، حرصًا على سلامته وحياته.
- ماذا تريد مني أن أفعل يا مولاي؟
- .....

[٢] الأمازيغية ....شعوب أصلية وسكان الشمال الأفريقي الممتد من ليبيا وحتى المحيط الأطلسي غربا

- مولاي، ما رأيك بالجارية ماسيليا هي جارية مهذبة ورشيقة كما أنها مليحة الوجه ولديها مؤهلات في التسلية من رقص وعزف؟
- لقد فكرت بها أيضًا، إنها إحدى الجواري اللاتي ستذهبن.
- ماذا بعد؟ لقد فكرت ودبرت لكل شيء، فما حاجتك إليّ؟
- اتّخذت قرارًا بإرسالك مع الجواري للخليفة.

جحظت عينا حور ولم تنبس بكلمة، وبينما هي كذلك تساقط الدمع من عينيها دون توقف وكان موسى يفسر لها غرضه من الأمر، بينما هي لم يصل لمسمعها كلمة واحدة مما لفظه.

قال لها موسى :حور...ما رأيك بما قلت لك؟ أنا لا أثق بغيرك كي أفصح لك عما أنتوي وأريد منك عدم الشعور بالحزن لمفارقتي ..فما باليد حيلة..لماذا لا تنطقين؟ !تكلمي..كفي عن البكاء، كلنا رهن إشارة لخليفة المسلمين ولأوامره...

- أطلَبَ منك الخليفة حور بنفسها وباسمها؟ أم أنت من تريد التخلص مني، إنك لا تُكِن لي ما أكنه لك،

لا تشعر بوخْزٍ في قلبك مثل ما أشعر، لم تكتو بنار الفراق مثلما حدث معي، أليس في قلبك ذرة من الشفقة على حالي؟ فلتجبني يا سيدي، أستحلفك بالله، فلتفصح لي عن مكنون قلبك الآن وأعدك بفعل ما تطلب مني دون أي توانٍ أو تأجيل..

- حور لا.....
- ماذا ستبرر لنفسك أمامي؟!

- **حور أتناسيتي نفسك؟ !أنت ملكي ولا يحق لك أن تتحدثي معي هكذا....**
- **أنت قلتها، أنا ملك لك، لماذا تتخلى عني بتلك السهولة؟!**

أحاطها موسى بذراعيه وكفكف الدمع المتساقط منها وأردف يذكر لها محاسن ورغد العيش بجانب الخليفة في قصره

، والمعاملة الحسنة التي ستتلقاها هناك، الجواهر والملابس المزركشة والمطعمة بأنفس الدرر وأيضًا مكانتها المحفوظة بين جواري الخليفة

، فهو يعتقد أنها أجملهن على الرغم من اختلاف البلدان التي ينتمين إليها الجواري الأخريات، فجمال شمال أفريقية الأمازيغي لا ينافسه جمال آخر على وجه الأرض.

وهكذا مضت الليلة بمرارتِها على قلبِ حور وظلت مستيقظة طوال الليل بجانب الشرفة العالية تنظر تجاه بوابة الحراسة وعلوها وما يحميها من جنود، سرحت بفكرها في تلك البلاد البعيدة

، قصر آخر تتجول بداخله، ألهذا الحد يتلاعب بنا القدر، من قصر لآخر ومن أمير لقائد لخليفة ل .....والله يعلم ماذا بعد

!وسيدي موسى، ماذا أفعل من بعده؟ !كيف سأبتسم في وجه غير وجهه؟ !كيف لي أن أخرج صوتي يتصدّح بالغناءِ لغيره؟ !لكنه طلب مني التنفيذ ولن أرفض له أمر؛

يكفي أنه أطلعني على هذا الأمر ولم يطلع أحد آخر، سأنفذ يا قلبي الدامي ما طلبه وأتمنى أن تهدأ أيها القلب، فبعد ذلك لن ترى من الدنيا زخارف تغريك من الكلام المعسول.

انتبهت الجارية ماسيليا أثناء تقلبها في الفراش أن فراش مارين خالي فرفعت بصرها تبحث عنها في الغرفة الواسعة التي تضم العديد من الجواري

، وجدتها بجوار الشرفة تنظر للخارج صامتة .نهضت ماسيليا من نومها متجهة إلي مارين، قالت لها :ماذا دهاكِ؟ ! لماذا لم تخلدي الى النوم بعد؟!

نظرت اليها مارين وقالت لها : أردتُ أن أتأمل قليلًا، وحدي، لا أحد يعلم ربما لا نرى المكان هذا ولا القصر ثانية.

لم تنتبه ماسيليا لكلامها، فقد اعتادت على سماع ألغاز لا تحصى من مارين من قبل، كما أنها لا تشغل بالها بما يدور من أحداث ولا يفرق معها أعاشت في هذا القصر أم غيره ما دامت تأكل جيدًا وتتزين بالجواهر وتجالس القادة والأمراء . أما مارين أو حور كما يطلق عليها تنظر لحياتها الماضية وتأسف على ما مر بها حتى الآن .

ذكّرت مارين ماسيليا بذلك الجندي المدعو يوبا والذي تغير اسمه إلى عمرو، حيث كان يتلمس النظر إليها كلما تنزهت بالحديقة، حاول التحدث معها ذات مرة لكنها ردعته،

خوفًا على حياته، كانت تسعد بنظراته المصوبة تجاهها بل أكثر من ذلك كانت تكثر من التجول بالحديقة لتتلذذ بنظراته وشوقه لها،

أما الآن فهي تشفق على نفسها ولا مجال لتوديع ذلك الجندي الرابض خلف بوابة الحراسة يترقب بشغف قربها منه

، أبسط الأشياء في الحياة والتي يتمناها المرء منا تحرم عليه ويحرم منها، كم أنت قاسية أيتها الحياة !لقد تذوقت من نفس كأس العذاب الذي أذاقه يوبا دون أمل، لأول مرة أشعر به وبشعوره تجاهي

، ليتني لم أتشمت به وأقلل من شأن حبه، فحالة الفشل في الحب لا يشعر بها سوى من أصابته الخيبة وانتهاء الأمل في الوصول إليه.

تنهدت ماسيليا وقالت لمارين :تصبحين على خير..لقد غلبني النوم وتمكن مني وأنصحك أنت أيضًا بترك هواجسك ومخاوفك والنهوض للنوم

، فقد اقترب الفجر وقد أمر مولاي موسى بالاستعداد باكرًا لأمر مهم سنفعله.

نظرت إليها حور بحزنٍ شديد، فهي الوحيدة التي تعلم بما نوى عليه سيدها ولم يذكره بعد للجميع .ففي الصباح سيتجلى كل شيء كما النور ولا مجال لأي مخالفة أو اعتراض من جانبهن، فهم ليسوا مخيرين في شيء.

سوف تبق ذكرى مولاي وسيدي وحبيب قلبي موسى بين أضلعي إلى الأبد حتى يتخطفني الموت ولكني يجب أن

أتصرف بحكمة وأجد حلًّا لتلك المعضلة حتى أبق بالقصر دون رحيل أو الموت.

في الصباح التالي كان كل شيء على ما يرام واستيقظت الجواري كعادتهن لرؤيه سيدهن وتهنئته بالقدوم المبارك حتى يغدق عليهن من الجواهر والأقمشة ما يرضين به .

ولما انتهى عرض الترحيب والرقص والغناء، أمر موسى بمغادرتهن القاعة فلبّيْن جميعهن إلا حور بقيت دون حراك لتلق ما بجعبتها أمام سيدها فقالت له :هل فكرت جيدًا يا سيدي فيما تحدثنا ليلة أمس؟

التفت اليها موسى وعقب قائلًا :لقد قررت منذ مدة ولم أعط نفسي الحق بالتفكير في الأمر، ولتخرجي الآن للحاق ببقية النسوة

اغتاظت من كلماته اللازعة فردت :وما بالك لو كنت حاملا منك؟ أتتخلى عنى بسهولة وتتركني أرحل؟

لم يصدق موسى ما قالته جاريته؛ فمنطق الحمل غير وارد لديه ومن تخالف أوامره تقتل، لكن حور تتحداه بقولها لتنظر ماذا يفعل بعد

.اقترب منها موسى وحدق بعينيها فأكدت له الأمر، فثار ثورة عارمة وردد قائلًا :وما العمل اذن..كيف سنتصرف .. أتضعينني أمام هذا الأمر مجبرًا بحجة الحب تلك؟ ويحك يا لك من حمقاء، غير مدركة العواقب...ابتعد موسى قليلًا عنها، متمشّيًا بالقاعة ومواليًا ظهره لها

انفطر قلب حور من ردة فعله معها واتخذت الفرصة لفعل ما نوت عليه، فأخرجت الخنجر من حزامها وقامت بطعن بطنها وأخرجت حشرجة ضعيفة معقبة :لا تقلق سأريحك مني للأبد ثم هوت على أرضية القاعة.

التفت موسى على صوت الارتطام بالأرض فوجدها تقطر دمًا وبجانبها الخنجر فذهل وصاح بأعلى صوته :أيها الحراس هلموا بأقصى سرعة، أحضروا الطبيب في الحال، أحضروا الكيميائي ومختصة النساء بالقصر

، أسرعوا، حملها على ذراعيه لوضعها على فراشه، وكانت حور محتفظة بقليل من وعيها فمدت يدها لتمسح على وجه سيدها حينما رأت عيناه مغرورة بالدموع من أجلها وبعد لحظة خرت قواها واستسلمت لفقد وعيها.

مرت الساعات وكأنها سنين عجاف على موسى وهو ينتظر بفارغ الصبر خروج الطبيب أو أحد مساعديه ليهدأ من روعة وألمه الذي اشتد بصدره نتيجة وقوع الفاجعة لحور..أيتها الحمقاء ماذا فعلتِ؟ لن أسامح نفسي إذا وقع لك مكروه وليسامحني الله ...لن أتخل عنك بعد ما حدث ولو وصل أمرك إلى الخليفة.

خرج الطبيب من القاعة التي كانت قبل ساعات للفرح والمرح أما الآن فهي بمثابة غرفة للجراحة والكل يترقب الخبر

، ماذا بعد قالها موسى

..قال الطبيب لسيده :سيدي لقد تم إجهاض الجنين والجارية في حال خطرة ونرجو من الله العون وليس بيدي أكثر من ذلك

.تعجب موسى من حديث الطبيب وقال لنفسه إنها لم تكذب علي !كانت تحمل طفلًا بأحشائها !لماذا لم تصارحني ليلة أمس بهذا الأمر؟ أأرادت اختبار حبي وتعلقي بها؟؟ !

ضرب موسى بكفه على الحائط وعلى الفور توجه للداخل وأمر المساعدين بالرحيل وبقى هو بجانب حور يتأمل وجهها الذي تغيرت ملامحه وشحب كثيرًا، مرّر يده على وجهها وتحدث بصوت يكاد يكون مسموع،

لقد عرفت وتيقنت من حبك لي وأعاهد الله إذا تم شفاؤك ستكونين زوجة لي طول العمر

..ثم أمسك يدها وقبلها فأحس بحركة بها وعندما نظر إليها وجدها تسترد القليل من عافيتها قائلة له :أحمد الله أنني سأموت بين يديك وأحمده أنني عشت لهذه اللحظة التي أسمع فيها منك أنك تريدني زوجة لك، كم تمنيت أن تقولها قبل ذلك.

توقفت حور للحظة لتبتلع ريقها وهو ينظر اليها ويتوسل بعدم إرهاق نفسها بالحديث، لكنها لم تمتثل له وأردفت تقول :الآن حصلت على مبتغاي في جعلك تحترق شوقًا كما كنت أنا من قبل، سأظل خالدة بتفكيرك وحياتك ولن تفارقك هذه الذكريات يا موسى

..وبدأت تخور قواها مرة أخرى وهو يطلب منها السكوت حتى قالت سأسكت إلى الأبد، لن أزعجك بعد اليوم يا

... يا موسى ... ثم سقطت يدها بجوارها والدمع يسيل من عيني موسى وهو يطلق صرخة قوية اهتز لها القصر كله، مُحتجًّا على فراق أغلى وأنفس الحوريات لديه.

لقد نجحت في أن تلقنه الدرس المطلوب ولن ينساها ما دامت الروح تدب فيه.

تمـــــــــــــت

" قراقوش[٣]"

امتطى الوزير الهُمام جواده بعد أن توارى عن أعين العامة بارتدائِهِ ملابس لا تفضح مهنته ولا تُعْرِب للعامةِ عن نفسِه، ثم أخبر حراسه ومساعديه بالبقاء مع القائد صلاح الدين،

[٣] بهاء الدين قراقوش وزير القائد صلاح الدين الأيوبي ومساعده بالقاهرة عرف عنه الصلاح والعدل بين الناس وتوفي عام ٥٩٧ ه

فلا داع لمرافقته بعد ارتداء تلك الملابس الرثة، أما بالنسبة للجواد فسيتركه بأقرب مكان قبل اقترابه من سوق المدينة.

لم يتعجب الحراس من قرار سيدهم، فهو يُحِب المغامرة واستطلاع أخبار البلاد بطُرُقِه الخاصة وكفى بسوءِ الأحوال خير دليل؛

فالحملات الصليبية تغزو المدن والقرى بلا تمييز أو تفرقة، كما أن المغول بدأوا بإثارة القلاقل مع البلاد الإسلامية المجاورة لها ولذلك لا يثق إلا بعينيه وما يراه من تصرفات العامة وحركة البيع والشراء وخلافه.

قرر المرور في بدايةِالأمر بسوق النخّاسين فهو أنسب مكان يجمع فئات الشعب، يرتاده الأغنياء والأمراء لشراءِ العبيد والجواري الحسناوات، أما بالنسبة للفقراء ففرصتهم رائعة لإختلاس النظر للجواري بمختلف أشكالهن من فارعات الطول إلى ذوات الشعر الأشقر والراقصات منهن،

بطبيعةِ الحال لا يتم عرض إلا أفضل النساء لجلب مزيد من الأموال لصاحبهن .

سار الوزير بين الجمع وحاول اختيار مكان ملائم يجالس فيه الفئات المختلفة ويستمع إلى حديثهم؛ فوقع بصره على ركنٍ خالٍ إلا برجلٍ يوحي منظره بالبؤسِ الشديد،

ما أن يقع بصر المارة عليه حتى ينفروا منه ويهربوا لمكان آخر، فانتهز الوزير هذه الفرصة وجالسه على مضض حتى ينهي مهمته.

نظر الرجل للوزير وابتسم له وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث فقال :أشعر أنك لا تنتمي لهذا المكان يا سيدي.

- **وما الذي أوحى لك بذلك...أنت عرّاف؟!**
- **لا ولكني شبه دائم في هذا المكان لا أعرف غيره ... ليس لي بيت أقيم فيه ... كما أني لا أعرف لي عائلة وأُفضِّل هذا المكان لعطف الأغنياء عليّ ولو بالقليلِ من أموالِهم.**
- **وما الذي جعلك تفكر أني لا أنتمي لهذا المكان؟**
- **على الرغم من أنك ترتدي ملابس رثة ونعل رديء وعمامة مُتَهَتِّكَة إلا أن تجوالك بالمكان ونظرات عينيك واختيارك لمجاورتي تنم عن شخص فطن يريد الاستماع والرؤية ولا يحتاج إلى التمتع كما العامة.**
- **تعجب الوزير من بساطة الرجل وفطنته رغم فقره المُدْقع، فحاول معرفة المزيد منه عن أحوال العامة والسوق وما رأيهم في وزيرهم قراقوش وحاكمهم صلاح الدين وطريقته في إدارة البلاد.**

قال الوزير للرجل :أرى أنك خبير قديم ومُتَمَرِّس في فهمِ ما يدور حولك من أمور فما رأيك بما يدور في البلاد وشئون العباد؟

قال له الرجل أن أتعرف إليك أولًا قبل الخوض في أي حديث، فلابد للإنسان من معرفة أخيه حتى يأنس به ويثق فيه،

بالنسبة لي الجميع يعرفني هنا لأني كما ذكرت لك مقيم هنا ...أنا أدعى شمس الدين وأنت...

رد الوزير عليه قائلًا وأنا فخر الدين .

- أهلًا بك يا فخر الدين في سوق بيع الآدميين بلا رحمة..بلا شفقة؛ كأن النفس والهيئة التي خلق الله عليها الإنسان غير مُشرِّقة له

آهٍ لو أنك مثلي مقيم هنا لرأيت العجب وطار لُبّك من أفعال الناس.

اعتدل الوزير في جلسته وحمد الله في سره على أن هذا الرجل الحكيم الذي سيكشف له كل خبايا العباد بجلسته وحديثه.

قال الوزير للرجل :تكلّم وأفصح بمكنونِ صدرك يا شمس فأنا أشعر بقرب مجلسك وحلاوة كلامك، كما أنني في قرارة نفسي أحس بعدم استغنائي عنك ومرافقتك على طول الأيام.

ابتسم شمس بحنانٍ بالغ واطمئنّ قلبه أكثر لفخر الدين فقال له :أتعرف يا فخر مُذ أتيت إلى هذا المكان لأقتات منه وأنا أشعر بالخزي لموت الضمير الحي في بني البشر؛ فقد اعتدت على مدِّ يدِي للقاصِ والدّانِ فلا يتقدم مني إلا الفقراء فيعطونني ولا يبخلون عليّ

، أما الأغنياء الذين أعطاهم الله ليتصدقوا على أمثالي لا يقتربون مني أبدًا وكأني مجزوم، ينظرون إليّ باحتقارٍ ثم يمضون بطريقِهم، وقلّما أعطاني غنيّ غريب عن البلاد وعَطفَ عليّ أمام العامة ليمتدحونه وينشدون فيه من الشعر

، يا للمفارقات العجيبة يعطني الغرباء ويمنعني الأقرباء !كم من غريب دنا وكم من قريب قصا !أتعلم أن الجميع يتمنى شراء الجواري حتى الفقراء؟

!يعيش حياته مانعًا نفسه وزوجته وأولاده، مادًّا يداه للدّيْن والذل من أجل شراء جارية تُفَرِّج عن حالته !

هؤلاء الحمقى والمجانين كل شاغلهم متاع الدنيا وزينتها ولا يكترثون بدُنُوِّ عدوٍّ يستعبد أولادهم ونساءهم، الكل منهم لديه ما يكفي قوت يومه كاملًا ولا يحمد الله

، أما الأغنياء يتحكمون في البضاعة والأسواق ويتفقون على رفع أسعار السلع طمعًا في الربْح الوفير وإذا طُلِب منهم عطاءً للحروبِ يمتنعون عن الدفع متعلِّلِين بسوءِ الحال وضنك العيش.

تعجب الوزير من حكمة الرجل وبلاغته وفهمه سر الحياة رغم حاجته الشديدة، فلا يكاد يستره شيء إلا القليل من ثوبٍ صوفي أكثره مُرَقع بالخيوطِ ومع ذلك لا يطمعْ في الكثير ولكن لماذا لم يحاول العثور على عملٍ أفضل من التسول ومدِّ اليد للغير؟

!جالَ السؤال بخاطر الوزير فقرأه شمس بفطنتِه فأردف قائلًا :أنا أفهم ما يجول بذهنك وسأوضح لك؛

ذات مرة فكرت أن أعمل حدّادًا وأتعلم صنع السيوف وأدوات الحرب فذهبت للحداد للعمل معه في بدايةِ الأمر علّمني

الحِرْفة وعلمني كيفية الطرق على الحديد وتطويعه بالنار حتى أتقنت العمل أكثر منه

، فتواكل عليّ وترَكَ لي الحانوت لما لمس من أمانتي واتّجه لشربِ الخمر وقضاء الليل في المحرمات ولما ثقل عليّ عبء العمل واشتكيت له نهرني ثم طردني خارج الحانوت بعد أن أبلغت زوجته بأفعاله

، فطبيعة العباد هنا اتّكَاليّه على غيرهم ولا يشكرون لأحد.

أما الآخر فكان جزّارًا عملت لديه ولكنه كان نهم في حبِّ المال حتى في أحلك الأوقات والأزمات كان يزيد من أسعار الذبيحة وبالطبع لا يشتري غير الأغنياء أما الفقراء والمعدومين فيتسابقون مع كلاب الحي لاختطاف العظام وطبخها

، فتركت العمل عنده لعدم اقتناعي به وفضلت التجول في ملكوت الإله باحثًا عن نفسي الضائعة وعن إنسانيتي المفقودة وسط الحمقى والمغفلين

وتعلمتُ الكثير من أحوالِ المارّة نساء أو رجال، فالكلمات جميعها تخرج أمامي وبذلك أعرف مقاصدهم واحتياجاتهم وأفراحهم وأحزانهم.

وظل يقص على الوزير حتى تعب من الحديث معه، ولما قاربت الشمس على غروبها تهيأ قراقوش للمغادرة؛ فقد طال الحديث مع شمس ولكنه ليس كأي حديث إنّه أشرق بداخل الوزير أشياء لم يعرفها بعد وعلم اليوم من الأسماء ما يكفي لإجراء تحقيقات لا تنتهي

.استأذن الوزير من شمس قائلًا :لن تكون آخر زيارة لي، فالحديث معك بمثابة مجالسة ألف فقيه وعالم وأخرج من جيبه صرة من العملات الذهبية وقذف بها في حجر شمس

وقال له :هذه لك يا شمس فلتشتري أجود الثياب والنعال وغدًا سأبعث لك بمرسال لتحضر إلى بيتي

، فأنا أحتاج معاونتك في إصلاح شئون البلاد وعندما هم بالمغادرة قال له شمس :الوزير لا يحتاج للعون

، فهو خير عون ويكفي اختلاطه بالعامة واتساع صدره ووقته لجلب المعلومات دون الاتكال على معاونيه.

ابتسم الوزير هذه المرة ولكن دون تعجب فرجل مثل شمس بذكائه لا تَخِيل عليه تلك الحيلة من التخفي.

* * *

تمت

"طعم الخيانة"

لم يطق" ابن العلقمي[٤] "صبرًا داخل القاعة الكبيرة فقد سيطر عليه القلق والريبة،

انه على هذا الحال منذ ما يقارب النصف ساعة، يتحرك جيئة وذهابًا، ينظر من الشرفة أحيانًا،

ينادي على حاجبه يسأله عن زائر طلب مقابلته؛ فتَوَتّره الزائد عن الحد نزع من قلبه الحيطة و الحذر هذه المرة .إن الرسالة التي من المفترض أن تصل برفقة الحمام الزاجل لم تصل بعد

، تأخرت عن موعد وصولها نصف ساعة، فماذا هناك يا ترى؟ ! أتَعِبَت الحمامة وهبطت لترتاح قليلًا على إحدى قمم الجبال، أم وقعت في يدِ صيادٍ ماهر، ويا هل ترى فضت الرسالة على يد أحدهم؟ !يا الله..إن عقلي سيطير؛ هكذا ردد الوزيرداخل نفسه.

لم يستطع السيطرة على نفسه ولا كبح صوت غضبه فنادى مرة أخرى على الحاجب لسؤاله ولكنه لم يحصل على شيء وأثناء وقوفه بالداخل مع حاجبه، دخل حاجب آخر مستأذنًا بقوله :سيدي الوزير لقد أتى شخص يريد مقابلتك على وجه السرعة،

أشار إليه بالمغادرة وإفساح المجال لدخول السائل ولما وقعت عيناه على الرجل تنفس الصعداء وتمتم في سِرِيّه

..الحمد لله، بادر بسؤال الرجل قائلًا :لماذا تأخرت هكذا؟ سيكون عقابك عندي شديد .... كيف تجرؤ... ؟ ولم ينته من لفظ الجملة حتى قاطعه الرجل قائلا :سيدي أنا خادمك المطيع وظلك الذي لا يشعر به أحد، فلتهدأ قليلًا حتى أقص عليك ما جرى .إن رسالتنا التي بعثنا بها لقائد المغول وصلته وقام بفضها في الوقت المحدد

[٤] هو محمد بن أحمد بن العلقمي ولد عام (٥٩٣ ه -١١٩٧ م) كان وزيرا عند الخليفة العباسي المستعصم ، اشتهر بالفصاحة بجانب خبرته السياسة ، رتب مع هولاكو قائد المغول غزو بغداد والقضاء على الخلافة العباسية .

تمامًا، أما بالنسبة لرسالتهم الآتية فقد شاءت الأقدار أن تتأخر في الرد علينا ريثما يفكرون كعادتهم لكن التفكير طال بهم هذه المرة يا سيدي

، انهم يشعرون بالقلق حيال المعلومات التي طارت إليهم؛ لا يصدقون أنك قد قمت بإقناع الخليفة الذي يحكم العالم الإسلامي بالسير لهم ومطالبة الهدنة معهم دون جيش للحرب، يحسبون أن تلك مكيدة منا وخدعة نستدرجهم بها.

أردف الوزير هامسًا له :وكيف عرفت كل ذلك وحدك يا ماكر .... أقرأت الرسالة.

تنحنح الرجل وابتسم قائلًا بخبثه المعهود :لَمّا لم تصل الرسالة بمعادها إليّ مع الحمامة الموكلة بها ووصلتني متأخرة سار الشك في نفسي، فخفت أن تكون مكيدة مدبرة ويكون اسمك مسجل بها أو يتابعها أحد للإيقاع بك، فأنا أعلم أن حاسديك كثر وخفت على شأنك وسلطتك أمام الخليفة والعامة؛ فقمت بدوري بذبح الحمامة وتناولت الرسالة على وجه السرعة متجهًا إلى الباحة الخلفية ببيتي وقرأت ما بها، ليس لخيانة أمانة الرسالة حاشا لله .. ولكن خوفا عليك كما ذكرت.

ركز الوزير نظره على أرضيّة الغرفة وأمسك الرسالة بإحدى يديه ولحيته باليد الأخرى ثم تحرك ليجلس على وسادة فاخرة، أخذ وقته الكافي في قراءة الرسالة بدقة شديدة وتنفيذ ما جاء بها بأقصى سرعة.

إن رجل مثل الوزير ابن العلقمي ليس بهيّنٍ أبدًا إنه داهية استطاع بفطنته الوصول إلى عقل خليفة المسلمين المستعصم مما جعله مصدر ثقة

وترك له حرية التصرف في شئون البلاد دون أي مراقبة أو قيود من الخليفة بل الأدهى من ذلك إقناعه الخليفة بتخفيضٍ عدد الجند وتوفير المصروفات نظرًا لقرب فراغ خزانة الخليفة كما قام بإقناع المستعصم بطلب هدنة من المغول حقنًا لدماء المسلمين واستخدام الفكر السلمي بدلًا من السيف والحربة.

لكن ما لا يعلمه الخليفة أن هذا الثعبان التفّ حول عنقه لانتزاع عقله وعينه حتى لا يستطيع التفكير أو رؤية ما يجب رؤيته بوضوح.

خرج الرجل من القاعة بعد أن دسّ في جيبه كيسًا يحوي حفنة من العملات الذهبية نظير خدماته

، وبعد خروجه بقليل عدّل الوزير من هيأتِهِ واستعدّ لملاقاةِ الخليفة لإطلاعِه على خُطّتِه الجديدة التي توصّل إليها لإنهاء الأزمة بين المسلمين وجيش المغول المتربِّص للقضاءِ على كلِّ ما هو أخضر أو يابس.

دخل الحاجب القاعة الكبرى على الخليفة، فانحنى أمامه قائلًا :

مولاي خليفة المسلمين سيدي الوزير على الباب يريد مقابلتك...

أشار المستعصم بيده مُعْربًا عن موافقته ....

دخل ابن العلقمي على المستعصم، انحنى أمامه قائلًا :مولاي الخليفة..رشيد العقل...خليفتي وخليفة المسلمين في كل بقاع الأرض.

انفرجت أسارير المستعصم، لِحُبِّهِ المدح والثناء من وزيره وردّ قائلًا :لماذا تمتدحني هكذا دائمًا يا علقمي؟ أنت تعلم أني لا أحب الثناء في كل وقت .

ابتسم الوزير في خبثٍ وصوّب تجاهه نظرة ناريّة وهو يقول :لا عليك يا مولاي، فأنت خليفة المسلمين جميعًا من الشرق الأدنى وحتى الغرب الأقصى؛ فهل تستكثر على نفسك بعضًا من المدح في حضرةِ مقامك ومجلسك...

بهذه الكلمات أسكت الوزير خليفته وطوى الحديث موفّرًا اختلاق حجج لبدء حديثه عما حضر لأجله اليوم.

إن ابن علقمي أديب متخصص في مجال اللغة، ضليع في استخدام المعاني والكلمات الرنانة التي لها بالغ الأثر على قرارات الخليفة وما يصدره من قوانين داخل وخارج البلاد

، أما عبقريته بالأمور السياسية لا تقل شأنًا عن تميزه الأدبي والفكري، هكذا كان يظن المستعصم ويضع ثقته به دون أن تصيبه الريبة من جانب وزيره الهمام.

استهلّ الوزير حديثه مع الخليفة بقوله :ما قولك يا مولاي بأن نستبق السير للقاء ملك المغول والاتفاق معه على هدنة؟ !مع تقديم بعض الهدايا المُغْرِيَة والجواري لإغرائهم بقبول عرضنا وحماية بلادنا وفي ذلك الأمر بالطبع حقن لدماء المسلمين وحماية للأرواح.

رمق الوزير خليفته بنظره حادة، رافعًا أحد حاجبيه منتظرًا إجابته على مقترحه والذي بالطبع لن يستفد منه غيره.

أطرق المستعصم قليلًا ليفكر بالأمر وكعادته لم يلجأ لأخذ رأي مستشاريه قبل الموافقة أو الرفض .إن الوزير كالعرّاف الذي يسيطر بأقاويله ومخططاته اللعينة على عقل خليفته

، يشل حركته، يقيِّد عقله، يُعمِي عينيه عن الحق كالأفعى التي تُلْقِي بسمومها لتخدير فريستها قبل التّمَتُّع بالتهامها .

وفي ظل الموقف الملتهب بين اتخاذ قرار تحقيق المصير للإسلام كله، دخل الحاجب ليخبر مولاه عن قدوم قائد جيشه الدويدار.

فعلى الرغم من شجاعته وبسالته وتفانيه في خدمة بلاده وحاكمه، إلا أن الخليفة لا يأخذ كلامه على محمل الجد وكثيرًا ما حذّر الدويدار خليفته من سطوة العلقمي وخطورة أفعاله وفكره

لكنه لم يجد ردًّا حاسمًا على أقوالِه من الخليفة؛ فتوقف عن نصائحِه واكتفى بأشغالِه الحربية وتدريب الجنود.

أطلع الدويدار خليفته عن انتهاء تدريبات جيشه واتخاذ التدابير اللازمة، الاستعداد للقاء جيش المغول، لتلقينِهم درسًا من حاملين راية الإسلام

وانتظر رد الخليفة بالموافقة،

لكنه لم يحصل على مُرادِه والرد الذي توقعه بل دهش بعرض مشورة العلقمي وأخذ القرار بتنفيذها.

حاول الدويدار بكل ما أوتي من فطنة أن يُثنِي الخليفة عمّا اتخذه ولكن دون جدوى.

صمت الدويدار محدِّثًا نفسه...إن الخطر يكمن في الذهاب إليهم دون جيش، ألهذا الحد فقد المستعصم عقله !ألم يعد يعرف عاقبة التلاعب مع هؤلاء الغاصبين

، إنهم كالجراد المنتشر ينتهز اللحظة للقضاء على أرضِنا، وذبْحِنا ونثر أشلائنا، وسبي نسائنا، بيع أطفالنا في سوق النخاسة...لو أن

الأمر بيدي وحدي لذبحت العلقمي هذا وأطعمت الكلاب الضالة من لحمه...يا لهذا الخنزير الفاجر، ألم يكتفِ بأعماله القذرة،

لقد ساءت أحوال البلاد أكثر وأكثر، والناس ضاقت بها الحال كما أن أكثرهم فرّوا للبلاد المجاورة خشية دخول المغول بغداد والقضاء عليها.

كم هذا مؤسف؛ الذي يحدث للمسلمين...أين أنتم يا صحابة رسول الله؟ أين أنت ياخالد..يا عبيدة لمساعدتنا وحسم الأمر .تالله إن ما يحدث لنا عقاب من الله على تشتتنا ومحاربة بعضنا بعض،

وتكالبنا على عرش البلاد وتناسينا أمر العباد فأتانا البلاء القاضي لنجتمع ثانية، ولكني لا أرى أية توحّد..لا أرى غير الفرقة والتشتت وغرق الأمراء في ملذاتهم الدنيوية كأن ما أسسه الأوائل هباءً منثورا .

قطع صوت الخليفة صمت وتفكير القائد وهو يقول :لا تقلق يا دويدار سأذهب إليهم مع فرقة حامية للإتفاق على هدنة دون العوز للحرب

، فهي ستجلب الدمار لنا كما أنك تعلم أن عدد الجند قد نقص ولن ينجدنا أحد من أمراء البلاد، لذلك فضّلت استخدام الحل السلمي وليساعدنا الله.

نكص القائد رأسه مُتَمْتِمًا

..فليرحمني الله، ثم أردف قائلًا :وأنا حامي ظهرك يا مولاي أينما ذهبت وسأحضر معك ذلك اللقاء الذي لا أحمد عواقبه وليحدث ما يحدث.

استأذن القائد من خليفته تاركًا وراءه الوزير يستكمل خطته القذرة في بلاط الخلافة،

وأثناء خروجه من مجلس الخليفة صوب نظرة نارية كالرمح القاصد الذي لا يخطئ تجاه العلقمي بينما الأخير يبتسم متشفيًا في غرور

فقال القائد لنفسه :صبرًا يا هذا ستنال جزاءك بكل تأكيد وسيكون شر الجزاء، جرّاء أعمالك القذرة .أما بالنسبة للخليفة فالواجب يقتضي أن أطيعه مهما كانت العواقب ولكني

متيقن جيدًا أن يوم ذهابنا للقاء العدو الموحش سيكون يوم حتفنا جميعًا وبلا رحمة سيقطعوننا أشلاء بادئين بالخليفة المستعصم ووقتها ليرحم الله بلاد المسلمين.....

*** * ***

تمـــــــــــت

" بتاح الحكيم[5] "

أشعل" بتاح حتب "عودًا من البخور داخل قاعة دراسته التي يلجأ إليها، لاستخلاص حِكَمِه وأقوالِه من أعماق روحه المتأمِّلَة ثم يقوم بتدوينها على ما يجده أمامه من ورق البردي

[5] بتاح حتب أحد الحكماء اشتهر بفلسفته وأدب الحكمة في العصر الفرعوني كان وزيرا لدى الملك جد كا رع وهو الملك الثامن بالأسرة الخامسة .

إنه الآن بمفرده في تلك الساعة المتأخرة من الليل وأمامه مجموعة من ورق البردي يسجل بها كل ما يجول بخاطره من أمور تخص إدارة البلاد تارة

، وتارة يضع اللمسات الأخيرة لما يخص العامة وتارة أخرى لبيان حقوق وواجبات الفرعون تجاه رعيته من أقصى الجنوب وحتى شمال البلاد.

فهذه الحِكَم هي المخلص الذي يلجأ إليه كل مصري وقت الشدة، عندما يضطرب دربه وتقسو عليه الحياة، وتصفعه دون ما رحمة منها.

فدائمًا ما يردد" بتاح "بقرارةِ نفسه قائلًا :إنّ إمبراطورية كالتي نحيا بها ليست بالهينة، فنحن من نملك النهر حابي الذي يجود علينا بخيره فنزرع ونروي ثم نحصد

، كما أننا نملك أقوى جند وأعظم جيش بأسلحته الفتاكة ونقوم بتأديب الممالك المجاورة من حينٍ لآخر بسبب تطاولها على بلادنا ظنًّا منهم أن لديهم القدرة على إحتلال أرضنا والعيش في نعيم ذهبنا الوفير وغلالنا المتنامية والمنتشرة في كل شبر من مصرنا الغالية.

إننا لم نُعادِ أحد، ولم نحتل شعب ونذيقه الذل لأننا أحرار ونقدس الحياة بمعانيها وأنفاسها الوفيرة الظاهرة أمامنا في الطير، والحيوان ورمال صحرائنا، ورجالنا الأشداء الذين يشيدون المعابد والمقابر الضخمة فوق أكتافهم، ليُعَلِّمُوا أبناءهم قِيَمًا أكبر من الحياة .

أكاد أجْزِم على عدم تمكن أي شعب من الشعوب المجاورة في فن واحد من فنوننا بل لا يملك حكامهم حكمة فلاح قليل الشأن من عندنا.

يا إلهي ... إله الملكوت وخالق البشر أعِنِّي على استكمال ما أدوِّنُه ليكون عونًا لكل رجل وامرأة منا في حياته الفانية وبعد مماته واستعداده للأبدية.

انقطع تفكير الحكيم عندما طرق أحد عبيده باب قاعة الدراسة، فتعجّب لذلك ... إن خدامه يعرفون قوانين سيدهم جيدًا وينفذونها بأدق تفاصيلها بألا يزعجوه أثناء خلوته للتدوين

، فتمتم لنفسه قائلًا :لعل هناك أمر مهم لا يحتمل التأجيل.

دخل الخادم متأسِّفًا لسيدِه على مقاطعتِه أثناء العمل مُعلِّلًا بأن الفرعون قد أرسل لطلبه في الحال.

حدّق" بتاح "في ورقة بردي كان يحملها ثم أردف قائلًا :فليعينني الإله على اكتمال هذه الصحيفة المهمة، وقام بوضعها على منضدة مصنوعة من خشب الأرز ومطعمة بالعاج،

ليستعد لمقابلة فرعون البلاد ولاشك أن الأمر حقًّا خطير ليطلبني في تلك الساعة المتأخرة ولا أحب أن أتعجل الأمور حتى أستطيع وضعها في نصابها.

أطفأ" بتاح "الشموع المضاءة وترك عود البخور لتطهير المكان بعبقه وإضفاء مزيد من الروحانية، كما صوّب نظرة خاطفة على تمثال" رع "الصغير الموضوع أعلى خزانة الكتب وخرج مسرعًا للقاء الفرعون بقصره.

عندما وصل" بتاح "إلى قصر الفرعون لاحظ جو من التوتر يلف المكان، فالشموع مضاءة، الحراس متيقظون، كما رأى مجموعة من كهنةِ المعابد يهمون بالخروج ووجوههم مستاءة ويهمسون لبعض متذمرين لمطالب الفرعون وعندما رأوا" بتاح "صوّب كُلًّا منهم نظره للآخر،

فاستوقفهم كبيرهم– كبير الكهنة –بإشارة واحدة من يده ليتمكن من محادثه" بتاح "قبل دخوله للقاءِ الفرعون.

قال كبير الكهنة بتعنته المعهود :اااام لقد طلب الفرعون لقاءك إذن يا وزيرنا المخلص .. ترى لماذا؟

انتظر" بتاح "قليلًا ثم أردف بكل هدوء :أنا لم يعرف عني التسرع ولا أحب استباق الأمر وليطلبني مولاي الفرعون ابن الإله ومنفذ أوامره في أرضه وقتما يشاء..

رد عليه كبير الكهنة بضيقٍ وهو يقول :أفصح وقل الحقيقة يا بتاح فنحن جميعًا نعلم خبثك ودهاءك الذي يغلبنا نحن كهنة المعابد، أنت تعلم كل شيء ولن نعط لك الفرصة لتَقْلِب الملك الفرعون ضدنا مهما كلفنا ذلك.

تنهد" بتاح "وقال في ثقةٍ افعل ما شئت وهيا انصرف واطلب مساعدة آمون لعله يرسل من يساعدك في التخلص مني.

اغتاظ الكاهن من تهكمه بآمون وضغط على مفتاح الحياة الذي كان يحمله بيده وقال :أنا أعلم جيدا أنك تكفر بالإله" رع "العظيم وتواري ذلك حتى لا يعلم الشعب ويطالب برأسك أو دفنك حيًّا دون

جنازة ولعنك للأبد، ولولا الإله الذي تحتفظ به ببيتك لجعلت من لحمك هذا مضغة بين أنياب شعب طيبة ومحبي آمون.

كما أعلم أيضًا حب الفرعون لك وتقديره لدرجة جعلته يفكر في أمر آمون وعندئذ لن يجرؤ أحد على الوقوف أمامي، فأنا أمثل قوة الشعب لأني أسيطر على عقولهم بشأن الديانة وهي عندهم أغلى من الحياة نفسها،

قال" بتاح "لن تجرؤ على فعل شيء فخطاب العقل ومحاورة العامة، حبهم لي مع حماية الفرعون، وفرق الجيش التي تؤتمر بأمري تقف خلفي وتؤيدني ولذلك سأجعل من بلادنا طيبة ومنف وهيليوبوليس وكل شبر من أرضنا من أقصى الجنوب وحتى أبعد الشمال إمبراطورية فكر وعلم لم تعهد به من قبل ... في جميع المجالات من فلك وكيمياء وتحنيط وغيرها فقط بالعقل والحكمة معًا.

تركه" بتاح "واستكمل سيره لملاقاةِ الفرعون معلّلًا تأخره وتركه وجماعته يهمهمون مثلما حدث منذ قليل.

إن كهنة المعابد هم خدام لقمة عيشهم وخدام مكانتهم أمام العامة والفرعون بحاشيته لن يردعهم أعتى عدو حتى الملوك الغزاة لطالما حاولوا التودد للشعب عن طريق هؤلاء الكهنة بإغداق الأموال عليهم وإسكاتهم عن الحق وجر قدم الشعب لما يريدونه.

لم يشغل" بتاح "باله لأن تلك الأمور تحدث دائمًا وكهنة المعابد دائمي الشكوى لأتفه الأسباب، ودلف لدخول القصر حتى قابل قائد الحرس فانحنى القائد للوزير وبلغه أن الفرعون بانتظاره، فرافقه للداخل حتى قاعة العرش .

عند دخول قائد الحرس على الفرعون قال :سيدي ملك البلاد وربها وحاكم جميع أقاليمها الوزير"بتاح "بالباب، فأعطاه الفرعون إذنًا بالدخول

، وعلى الفور دخل وزيره بتاح، فانحنى أمامه قائلًا :سيدي الفرعون ... لقد أتيت فور طلبك لي ... أرى أن مزاجك لم يعد صافيًا كما كان أول النهار ... ماذا حدث يا سيدي وهل للأمر علاقة بالكهنة؟

ابتسم الفرعون مُوجِّهًا يده لوزيره حتى يجلس أولًا ثم يتم الخوض في شئون البلاد والرعية بعد ذلك.

شكر الوزير مولاه قائلًا :ولكن قل لي يا سيدي الفرعون ما سبب سهدك وعدم اقبالك على النوم في تلك الساعة؟!

رد عليه الفرعون بكل هدوء وقال :إنك دائمًا تدخل في لُب الموضوع دون تضييع لأي لحظة وسأقول لك السبب إذن

، لقد كنت أفكر في تطبيق بعض القوانين التي تساعد الناس وتخفف عنهم عبء الحياة، فأنت تعلم أن أموال الدولة وذهبها كله يصرف على الجيش وتأمين حدود الدولة وأيضا على بناء المعابد التي يلجأ إليها العامة وقت الشدائد،

لذلك استدعيت كبير كهنة المعبد ومعاونيه للمساعدة ولكنك تعلم أنهم لا يفعلون شيء غير تناول الطعام وحمل العامة على التبرع من أجل إرضاء الآلهة.

- أتعلم يا مولاي أن هؤلاء الكهنة يعلمون حقيقة عدم النفع من آمون كإله وبالرغم من ذلك يهددون الناس من سخطه وغضبه إذا تكاسلوا عن معونة المعبد وتقديم القرابين.

- نعم أعلم ذلك بوضوح ولكنهم يسيطرون على عقول الناس بالأساطير ويحركونهم كما يريدون ولذلك أخشاهم وأعيِّن من يستطلع أخبارهم.
- في الحقيقة يحزنني يا مولاي الفرعون إنساب العامة لأي ظاهرة إلى الآلهة وتقديسهم المبالغ فيه منذ قرون مضت للحيوانات والطيور، ولا يفكرون بالإله خالق كل تلك المخلوقات وراعيها.
- حقًّا إن هذا الأمر يحزنني ولكنه لصالحنا دائمًا، فأنت أدرى بالعامة لاختلاطك بهم!
- أجل يا مولاي إنهم حمقى تحركهم كلمة من فم حارس أو كاهن ويؤتمرون بأمر الفرعون دون نقاش، وسيطرتنا عليهم تفيدنا في توحيد الكلمة وقت الأخطار، كما تمكننا من جمع الأموال
- ..ولكن حذاري يا ملكنا العزيز من سخطهم، إن سخط العامة على الحاكم يؤدي إلى هلاكه وزوال حكمه مهما طال به الزمن، أنسيت الثورات التي حدثت حتى وحد ملكنا" مينا " الجنوب مع الشمال
- ...أنسيت ما حدث من صراع وتفكك وانهيار للدولة حتى قام ملكنا المعظم" سنفرو "بلم الشمل مرة أخرى .... يجب علينا الحذر دائمًا وعدم التوان في مراقبة الأوضاع خارج القصر ومتابعة حكام الأقاليم من وقت لآخر لضمان ولائهم !
- لذلك أحتاج إليك بجواري يا بتاح، فأنت حكيم في الإدارة وفض المنازعات ويبجلك العامة وينفذون أوامرك .كما أنني

تركت لك تعيين من تريد في ولاية حكام الأقاليم على طريقتك الخاصة وبشروطك أنت وحدك.

- الشكر لك يا مولاي على ثقتك الغالية والفضل يعود لمساندتك دائمًا، فلولا تفهمك وحبك للخير وللبلاد لما وصلنا لمرحلة الاكتفاء من الغلال والأسلحة.
- ولكني أحتاجك الآن لشيء أهم وأقوى من ذلك يا بتاح .... أريدك أن تسن قواعد خاصة أكثر حكمة، وأفضل حنكة لتهذيب الروح والعقل لدى الناس، لأنه عند نجاحنا في ذلك نستطيع السيطرة على العالم بحضارتنا، ومجدنا،

- وقيمنا الرفيعة والمتينة التي لا يوجد مثيل لها في العالم ونكون نحن إمبراطورية فرعونية خارقة بالعقل والروح معا فلا يقدس إنسان على وجه الأرض الحياة مثلما نفعل نحن الفراعنة ونحيا بروحنا ونغرق بملكوت ما هو مقدس عندنا . فما رأيك يا بتاح..؟

انتظر بتاح قليلًا لتَفاجئه بما أخرجه الفرعون من فمه، إنه لا يصدق فقد كان طوال الليل يحاول إيجاد طريقه لعرض الأمر على الفرعون دون المساس بقدسيته ومكانته ولكن الفرعون نفسه من يعرض عليه الآن دون أن يكلف نفسه عناء المخاطرة والاقتراح يا للصدف العجيبة، فليباركني الرب الإله في ملكوته الأعظم.

وأفاق الحكيم" بتاح"على صوت الفرعون مرة أخرى وهو يسأله عن قراره في هذا الشأن، فقد لاحظ شرود وزيره للحظة.

أجاب بتاح بالموافقة الفورية بل ومما زاد دهشة الفرعون تأكيد بتاح لتسليم أوراق البردي التي تحوي الأحكام المقرر نشرها بين الناس غدًا في صبيحة اليوم.

تعجّب الفرعون لتَسَرُّع بتاح فهو لم ير منه شيئًا مثل ذلك من قبل وأحب أن يقف على حقيقة الأمر فسأله سبب السرعة في الرد وثقته بتسليم الورق غدًا.

فقال له بتاح مبتسما .. أصارحك القول يا سيدي لقد كنت أفكر في تدوين ما يبقى لأنني كما تعلم تقدمت بي السن وخارت قواي ... فقد كنت أستخلص من عقلي بعض التوجيهات والأحكام قبل أن ترسل في طلبي،

وكنت أخشى عرضها عليك، فلما بادرتني بقولك فرحت فرحًا شديدًا اهتز له عقلي وقلبي وأنا لن أتوان عن خدمتك وخدمة شعبي وأمتي حتى يدركني الموت وتقومون بتحنيطي.

- العمر لك يا بتاح، فأنت نعم الصديق، ونعم الوزير ومثال لطيبة بلدنا،
- يُحتذى بك وسيذكرك التاريخ وسآمر النحّاتين بنقش اسمك على بعض جدران المعابد وبالطبع سيخلد اسمك بالزخارف الفرعونية الملونة التي لا تندثر مهما طال الزمن عليها.

تمت

" خالد ولدي "

دخل خالد بعد مرور يوم شاق ومعاناة في اللحاق بالمركبات إلى شقته ليجد أباه ملقى على أرضية الغرفة وبجواره والدته تحاول أن تصغ السمع لِما يردده وهي منكبة عليه وتتساقط الدموع من عينيها.

قذف خالد بأدواته وكتبه الطبية وركع ليحمل رأس والده، محاولًا إسعافه ولكن روحه فاضت إلى بارئها بعدما لفظ الأب آخر كلماته بوجود ابنه قائلًا :حمدًا لله أنني سأموت بعد رؤيتك وأنت من يحملني ويواري مثواي، وقبّل يد ابنه ثم هوت رأسه بين يد ولده خالد.

لم تكن تلك اللحظات سوى أسوء لحظات مرت بخاطر خالد يومًا، على الرغم من كونه طبيب مبتدئ، ويعرف جيدًا أن أباه مريض بالقلب إلا أنه لم يستطع فعل شيء يذكر لمساعدة والده

فالقدر لا يرمي اتّكاله على مساعدةِ بشر.

توالت الأيام وأخذ بعزاء والده وحالته تسوء أكثر من ذي قبل، وكيف لا يحدث ذلك وقد تعود على الرجوع إلى شقته ليعطي الدواء لأبيه بنفسه ويجلس بجواره ويسامره بعض الوقت ويحاول تخفيف المعاناة عنه قليلًا كما أن أباه كان له بمثابة الأخ والصديق قبل أي شيء حتى قبل أن يكون أبا.

فموته قد وقع في نفسه موقع الهدم للروح كأنما فاضت روحه هو أيضًا بموتِ والده وبدى عليه الشيب قبل أوانه وقد أعطته لحيته التي أهمل تهذيبها مظهر إنسان مشرد أكثر من كونه طبيب ومسؤول.

لكن العجيب في الأمر هو تصرفات والدته التي أخذت في التبدل والتغير، ففي إحدى الأيام عاد مبكرًا من عمله على غير عادته، وعندما فتح باب شقته وقعت عيناه على مشهد لم يصدقه

، لدرجة أنه التف مرة أخرى ليتأكد من شقته ومفاتيحه ... هل هذا البيت يخصني .. هل ما أراه حقيقيًّا ليس من صنع الخيال ... أتلك الجالسة أمي حقًّا أم طيف عابر ... ومن هذا الذي تجالسه وحده دون الناس ولماذا لم أسمع صوتهما وأنا أقوم بفتح الباب ....

هكذا تحدث مع نفسه في حيرةٍ من أمره، لكن والدته هبت مسرعة من جلوسها لتقدم الرجل الغريب الذي يراه لأول مرة في حياته، ولم يرق له على أنه صديق قديم لوالده، كان خارج البلاد ولما قدم وعلم بوفاة صديقه جاء لأداء الواجب.

لم يصدق خالد تلك القصة الواهية، فهو يعرف جميع أصدقاء والده القريب منهم والبعيد لذلك رحب به بقليل من الحماسة ولم يعره أي اهتمام ثم استأذنه لتبديل ملابسه.

أحس الرجل بضيق صدر لما بدر من خالد لأنه كان يتوقع سلوكًا مغايرًا باعتباره صديق لما فقده خالد ويعز عليه، فهمس ببضع كلمات قبل خروجه بأذن أم خالد وانصرف لحاله.

دخلت أم خالد على ابنها غرفته للاطمئنان عليه فوجدته جالسًا على سريره بملابسه وقد تغيرت ملامح وجهه،

فجلست بجواره وربتت على كتفه قائلة :ماذا بك يا بني؟ ألن تنسى وتكمل حياتك ... أنا أعلم أن وفاة والدك تؤثر عليك سلبًا ... ادع له بالمغفرة واهتم لأمرك الحالي.

- كيف أنسى من رباني وعلمني وادخر كل ما يملك من أجلي بل ولم يرد إخبارنا بمرضه إلا مؤخرًا خشية من رفضي متابعة الدراسة .... كيف أنسى بتلك السهولة ولم يمر على وفاته سوى شهرين فقط؟!
- إنه سيظل بقلوبنا للأبد فلم يكن مجرد زوجًا لي ... يكفي معاملته لك ولي فهذا يفوق كل شيء ويعلم الله ما في قلبي لأجله.
- ولكن صارحيني القول.. من هذا الرجل حقًّا ولا تقولي أنه صديق أبي.
- أصارحك كيف .... أنا لا أكذب عليك هو حقًّا صديق قديم لوالدك.
- لا أصدق ولكن سأتغاضى عن الأمر لأني أريد تناول الطعام، فأنا لم أذق شيئا منذ الصباح.
- كل شيء جاهز سأعده حالًا لك، فلتنهض لتبديل ملابسك.

لم يكن لدى خالد ما يخبر به أمه، ولم يرد إيذاء مشاعرها بتلميح على ذلك الرجل، فلا يصح تواجده معها دون معرفته كما أنه لم يمض على وفاة والده غير مدة قصيرة وقد تنتشر الشائعات وهم في غنى عن ذلك.

كما أن الرجل خرج ولن يعد مرة أخرى بعدما تبرم منه.

لكن ظن خالد خاب فللمرة الثانية يحضر لبيته ويجد الرجل لكنه لاحظ أثر من بكاء أمه على وجهها فغضب ولم يسلم عليه بل اكتفى بقوله :من أنت ... ولماذا تحضر عند تحين فرصة غيابي .. أنا لا أريد رؤيتك مجددًا مهما كنت.

عند سماع الرجل لهذه الكلمات أردف قائلًا :سأخرج الآن ولكن لن أستطع الجزم بعدم الحضور مرة أخرى لأنه يوجد ما يوجب عليك سماعه.

استفزت تلك الكلمات خالد أكثر وأكثر وبدلًا من تخفيف آلام أمه والاستفسار منها عن هذا الموقف قال لها معنفا :لم يرتح أبي بقبره وأنت تحضرين شخصًا غريب الأطوار يملي علينا ما نفعله وما يجب سماعه ... ألك علاقة به ... أم ماذا... إن تصرفاتك أصبحت أكثر ريبة لم تعودي أمي التي أعرفها.

وأشعر بوجود سر غامض بينك وبين ذلك الرجل، فأنا لا يريحني مظهره.

لم تتحمل الأم ثقل هذه النبرات اللاذعة من فم ابنها، مستنكرة قوله واتهامه لها فلم تعلق وازداد انهمار العبرات من عينيها ثم دخلت غرفتها مغلقة وراءها الباب تاركة ولدها لوساوسه الشيطانية ولتصرفاته الغوغاء أمام الغرباء.

ارتمى خالد على الأريكة ليهدأ من روعه قليلًا ويسيطر على عقله الذي لم يعد يتحمل، فعلاقته بزملائه في توتر، أما عمله فلم يعد يرق له كثيرًا، وفكر في أخذ إجازة ليريح بدنه وذهنه الشارد ويقصد مكان ما، لكنه صرف تلك الأفكار عن خاطره من أجل أمه.

قال لنفسه :لقد أخطأت في حق أمي ... لا يحق لي التطاول عليها بألفاظ أو بعلو صوت ... فلتسامحني يا الله .. إنها ما بقي لي وأنا ما بقي لها .. لقد صور لي الشيطان أشياء ليس لها أساس ولكن الرجل تكلم معي بنبرة ثقة ووضوح كما أن أمي كانت تبكي ... نعم أنا متأكد أنها كانت تبكي.

تنبه خالد لما دار منذ قليل واتجه ناحية غرفة أمه لإرضائها ومحاولة تفسير ما جرى.

طرق خالد الباب قبل دخوله ثم دلف ليجد أمه ممددة على أرضيه الغرفة،فقدت وعيها لما حدث، أسرع خالد لمساعدتها فقام بتعديل وضعها محاولًا إفاقتها من جديد وأحضر أدواته الطبية وبعض الأدوية لإنعاشها وظل هكذا قرابة العشر دقائق حتى أفاقت، وعندما نظرت إليه أخذته في أحضانها وهي تبكي وتردد فلتسامحني يا ولدي .... اصفح عني واغفر لي.

قال لها خالد بصوت حزين :لا تقولي ذلك يا أمي، فلتغفري لي أنت ولتسامحيني أنت على وقاحتي ... أعدك لن يتكرر هذا أبدًا ثم قام بتقبيل يد أمه وساعدها على النهوض لترتاح وتستعيد عافيتها.

بالطبع مرت هذه الجملة بصورة عابرة على أذن خالد ولم يحاول استرجاعها أو التدبر فيها ليشك ولو لحظة في أمه.

مر أسبوع كامل والحال كما هي عليه وخلال هذا الأسبوع لم يحضر الرجل ولم يتصل حتى فاجأ والدة خالد بزيارته، فاضطربت، في بداية الأمر امتنعت عن السماح له بالدخول، لكنه قام بتهديدها وفضح أمرها إذا لم تقم بإدخاله كي يتفاهما لوضع حد لما عرضه عليها فاضطرت آسفة بالقبول وقالت له :أرجوك أن تتركني لحالي أنا وابني ... ماذا فعلنا لك، إذا كنت تريد مالًا سأعطيك ما تريد شريطة أن تنسى أمرنا.

ابتسم لها الرجل بسخرية وعلق قائلًا :أتعرضي عليّ المال ... إن ما أطلبه لا يقدر بمال، أتتذكري ذلك الموقف منذ سبعة

وعشرين عامًا كنت أنا من يعرض المال عليك لترحلي وتواري سوءتك.

- أتذكر جيدًا ولن أنسى ما حييت ما فعلته بي ولن أتركك تنال ما تريد.
- لا تكوني متأكدة، فولدك لابد له أن يعرف المستور وحينها لا يمكن التنبؤ بالعواقب.
- أنت سافل ومجرد من الإنسانية، يا لك من وغد ماكر.
- لا تطوِّلي لسانك والزمي حدودك.
- هاا ألزم حدودي .... أتعرف معنى الحدود فأنت مجرد من الشعور والإحساس.

لم يحتمل الرجل أكثر من ذلك فقام بصفع والدة خالد ثم أخذ يجرها من رأسها وهو يسب ويلعن أسلافها لاعنًا اليوم الذي تعرف عليها فيه وهي تصرخ وتصرخ،

فتنبه الجيران لما يحدث وفزعوا للصوت وهبوا لنجدة المستغيث حينها كان خالد يصعد الدرج متكاسلًا، فلما سمع صوت الصراخ وبعض كلمات الإستغاثة تيقن أنها أمه فهب مسرعًا إليها ومن هول ما يحدث لم يستطع فتح الباب بمفتاحه الذي يحمله

، فقام بدفع الباب بجسده وبكل قوته فانفتح على مصراعيه، ليجد الرجل أمامه وقد أدمى أمه من شدة الضرب، فلم يتمالك أعصابه واتجه نحوه ليمسك به وظل يصفع الرجل على وجهه حتى كاد أن يسقط، وما أن سمع صوت والدته وهي

تقول اتركه .. لا تضربه بالله عليك يا خالد ... أتوسل إليك لا تصفعه ... كفى يا خالد انه والدك ... إنه والدك يا خالد.

انطلقت تلك الكلمات كالطلقة المصوبة تجاه قلبه فشحب وجهه وكف يده عن إلحاق الأذى بالرجل موجهًا ناظره لأمه حتى يستطع فهم ما تلفظت به.

قال خالد بتلعثم :ما ... ماذا قلت ... كرري مرة أخرى ... ماذا؟

قالت الأم وهي تنظر إليه :هذا هو والدك الحقيقي ... قدري

- كيف هذا ... وإذا كان أبي، فمن الذي توفى و ....

ولم يستطع تمالك نفسه فسقط على الأرض واضعًا يديه على رأسه محاولًا إبعاد ما يحدث عن خاطره ... أهذا حلم أم حقيقة ...ليتني مت قبل أن أسمع ما أسمعه الآن ... أهكذا كل شيء ...أينهار العالم فجأة وبدون إنذار تحت قدمي

...وراح يبكي بشدة حتى أحس بيد تلفه من الخلف وبصوت يردد :أنا والدك فلتسامحني يا ابني على ما اقترفته .. فما فعلته إلا بسببك أنت ... كنت أريد معرفتك والتودد اليك، لكنك لم تمنحني ذلك الشيء، فمذ رأيتني والحقد يملأ قلبك من ناحيتي ولا أعرف لماذا.

انفعل خالد ودفعه بعيدا قائلا :اتركني ... ابتعد عني ... ليس هناك ما يربط بيني وبينك ولن أناديك بأبي ما حييت ... لماذا تركتنا إذن ولماذا جئت تطلب الآن رؤيتي .. أين كنت وكيف تترك لرجل آخر إنسابي لنفسه

، أنا لا أصدق .... فلتخرج الآن لا أريد رؤيتك بعد اليوم ومن الساعة، أبي توفى وسيبقى أبي ما دمت حيًّا وكفى باسمه دليلًا على ذلك أما أنت فلا شيء يجمعنا ولا يضمنا حتى بعد الموت ... أتمنى لك الجحيم الدائم .

أنت تدعى قدري أم أنك جئت لتعكر قدري ونصيبي بالحياة.

أطرق الرجل حزينًا ونبرات الأسى تتقاطر من صوته وهو يقول :أنا لم أقصر يومًا، لقد كنت أتقصى أخبارك من بعيد ومنذ ولادتك ... لكن أمك لم تترك لي خيار وأنسبتك لرجل آخر وما منعني عنك إلا ما لمسته من معاملته الحسنة لك وحرصه على توفير ما يلزمك رغم مرضه وكنت أيضًا أتبعه من وقت لآخر دون ملاحظته لي وبذلك عرفت جميع أخباركم دون تعب.

أنا حتى لم أشعر بالأسى لتطاولك عليّ، انك لم تكن تعلم بصلتي بك.

علق خالد :كم هي قاسية هذه الحياة التي نعيشها ... يا الله ... ماذا عليّ أن أفعل

، يأتي رجل غريب وفجأة يقول أنه والدي ويطلب مني أن أصدقه ... أنا لست مغفلًا ...أم أن ما يحدث أمامي أحد مشاهد مسرحية هزلية

...لن أصفق لها ولن يصفق المتفرجون أيضًا لكونها سخيفة، صفيقة، مبتذلة

، وضيعة وواهية، لا تروق لي وسأنسحب منها متخليًّا عن دوري كمشاهد وسأكتفي بالصمت، فهو أبلغ ما يحتذى به في تلك اللحظة

...أما أنت وأمي فلكما ما تريدون، لن يمل علي أحد شيئًا وسأعيش كما أحدد لنفسي

وكما قلت لكما سابقًا لا أب سوى من أخذت عزاءه بنفسي وسط الناس.

لم يعلق أحد على حديث خالد واكتفى الرجل بتسويه هندامه مصوِّبا نظرة حادّة للأم ثم خرج من الشقة دون أن يستوقفه أحد.

بعد مرور فترة صمت قال خالد :فليسامحك الله ... لن نستطع المكوث هنا بهذا المكان بعدما عرف الجيران كل شيء،

فلتجهزي نفسك لترك الشقة في أقرب فرصة تحين .. ووداعًا لتلك الذكريات القابعة في أعماق كل شبر في هذا المكان الذي لن يحل محله آخر في قلبي على مر الأيام ولآخر نفس في روحي.

* * *

تمـــــــــــت

" دبيب نملة"

استيقظت الملكة" تاجيرا "من نوْمِها بكلِّ نشاط وحيوية لتجد جميع من بالقرية يؤدِّي أعماله المكلف بها بكل اتقان وتفان في جمع الحبوب وتخزينها، وتأمين مكان المعيشة الذي يأوي كل أفراد

المجتمع النملي من خادمات وحراس وجنود وذكور حتى صغار النمل.

طلبت الملكة من حارسها" أبومشغول "بعض الطعام لإعطائها الطاقة اللازمة التي من خلالها يتم متابعة آخر تطورات الوضع وعملية تخزين الطعام لفصل الشتاء، وحتى الاطمئنان على صغار "اليسروع "الذين هم أمل القرية في تزويد أعداد أفرادها وتقوية شوكتهم ضد أي أعداء وأيضًا الدرع الواقي لهم أوقات الحروب.

عندما انتهت الملكة من تناول طعامها خرجت لإلقاء خطابها اليومي على جموع النمل، لتزويدهم بالحماس ومناقشة وتوزيع أعمال اليوم وتصفية الخلافات بين المتخاصمين.

إنها بمثابة الإمبراطورة المُبَجّلَة التي ينحني لها الجميع بإرادتهم وليس رغمًا عنهم، فهي تمثلهم جميعًا، وتحافظ على بيوتهم ولا تأخذ قرارًا بعشوائية بل تستشير المختصين بشئون الحرب وبفضلها أصبحوا في مكانة مرموقة بين جميع طوائف النمل ويحسب الكل لهم ألف حساب.

لكن هذه الأيام الأوضاع غير مستقرة وخصوصًا بعد القضاء على الغابةِ المجاورة لقريتهم.

فمنذ قام البشر بتدميرها وأخْذ أخشابها وقتل ما بها من حيوانات والحراس يعانون الأمَرّيْن لحفظ أمن قريتهم المدفونة تحت التراب محاولين باستماتة الحفاظ على كينونتهم، لكن المُتَطفّلِين يظهروا من وقتٍ لآخر ولابد من أخذ الحيطة وتأمين المستعمرة جيدًا.

حينما وَقفت أمامهم قاموا بالتصفيق ترحيبًا بها، لكنها أشارت بيدها ليكفوا عن ذلك

، فلا خير من مضيعة الوقت الثمين ولمّا سكت جميع قاطني القرية قالت لهم :أيها النمل أنتم أمل اليوم والغد من دونكم لا نحيا،

لن يكون لنا وجود في هذا العالم الغريب والحرب على الأبواب ونحتاج العون من كل فرد منكم.

رفع حكيم المستعمرة يده للسماح له بالتعليق ولكن الملكة رفضت، فلا وقت كما قالت وحان وقت العمل وتنظيم طوابير جمع الحبوب والأقوات وإعداد المزيد من الخنادق لحفظها، كما أن الصغار على وشك الخروج من ثباتها ويجب التحرك فورًا.

انصرف الحشد بانتظام كلٌّ لعمله مستعدين لمواجهة الأخطار اليومية، فلا يمر يوم واحد دون خسائر وطبعًا لصغر حجمنا نموت بالمئات في وطأة قدم واحدة.

ظلت الملكة تجوب بداخل المستعمرة بنفسها دون إسناد ذلك لأحد وفي تلك الأثناء تبعها حكيم المستعمرة عاقدًا يده خلف ظهره وقد بدى عليه الانشغال وذلك بفضل انتفاض قرون استشعاره وتأرجحها طوال الوقت.

نظرت إليه الملكة وقالت له مازحة :ما بك أيها الحكيم الأطول عمرًا في كل الذكور.

فك الحكيم وضع يده وقام بحك قرونه قائلًا :يشغلني أمر في غاية الأهمية يا مولاتي.

- وما هو يا حكيم؟
- عُمّال المستعمرة يهمسون منذ الصباح وأخشى أن يقع ما لا يحمد عقباه.
- ماذا .... أي شيء تقصد ... أفصح عما تعرفه وبسرعة!

- لقد ترامى لسمعي بضع كلمات قد تؤدي إلى حدوث فوضى ومن ثم تحدث الثورة .فالعمال لا يرتاحون وما يقدم لهم من طعام لا يكفي بما يقومون به من مجهود يحفظ لهم طاقتهم.
- أنت تتحدث عن ثورة ... هذه الكلمة لا توجد بقاموس مملكة النمل بل يستخدمها البشر فيما بينهم، فلا تقلق من شيء.
- ولكن يا مولاتي.....
- أرح عقلك وتفكيرك فيما يفيد أيها الحكيم، يبدو عليك الإرهاق فلقد أبطأت في السير وأنا أريد الاطمئنان على كل جزء من قريتنا فهيا أسرع ولا تكن كسولًا .... حتى لا تصبح محط سخرية للنمل لا نريد أن يراك أحد هكذا، فنحن من أنشط مخلوقات الله ونحمده على تكريمه لنا بذلك بأن جعل بداخلنا أهبة العمل وإنجازه أقوى من الإرادة الفولاذية للبشر أنفسهم.
- ولا يستهان بنا وبجيشنا فالنبي سليمان الحكيم احترم أجدادنا وأبعد جيشه الكبير عن دربهم حماية لهم.
- عذرًا يا مولاتي فالشيب تملكني والموت جفاني كأنني لست أنتمي لمخلوقات الله، حتى السهر الذي يهد الجسد لم ينل مني في شيء .فلتدعي الله أن يتغمدني برحمته ويقبض روحي لألحق بأقراني في جنات النعيم الأبدي.
- لا تقلل من شأنك هكذا، فأنت ناصحنا وأعقلنا جميعًا بالمستعمرة ولن نتخيل أنفسنا بدونك .نحن نقدرك حق التقدير ولا تقلق لقد أعطيت أوامري من قبل لتحنيط جثمانك بعد

موتك ليتذكرك جميع أفراد القرية ويحذون حذوك في الإخلاص لقومك وبني جنسك.

وأثناء حديثهما معًا أقبل أحد قادة الحرس مسرعًا لتبليغ الملكة باقتراب أحد الأعداء من الطيور الجارحة، ويجب الاستعداد لغلق منافذ القرية وتنبيه العمال بالخارج لعمل اللازم .

أعطته الملكة أوامرها بإعادة العمال أولًا بكل السبل المتاحة ثم غلق المنفذ بعدها إذا فشلوا في ذلك يجب إعطاء الأوامر بتشتيت انتباه العدو عن طريق السير اللولبي عبر الجذور القديمة الميتة أو أوراق الشجر الجافة التي اصفر لونها وليموتوا بشرف الدفاع والتضحية من أجل اخوانهم.

أكد لها القائد التنفيذ وبكل دقة منحنيًا نصف انحناءة وهو يردد :تحيا مولاتي الملكة لنا

وانصرف مبتعدًا بخطى واثقة ومرحبًا بالموت من أجل وطنه وشعبه.

قال الحكيم مزهوًّا بما رآه، نعم الملكات أنت يا مولاتي ... أنت أملنا في الحياة ولولا عزيمتك على المضي قدمًا وتعاملك مع المشكلات بمثابة الجنرال المحنك والقائد المغوار لدقنا هنا إلى الأبد لتتغذى الديدان علينا وتحللنا لنندمج مع ما اندثر وهلك من الغابة .

أنتِ حقًّا فخر لكل الأجيال القادمة وليبارك لنا الله في عمرك.

ابتسمت الملكة بكل رقة وحنان وهي تلاطف بيديها أحد الصغار قائلة :لا داع لكل ذلك المهم أن نتقص أخبار العمال بالخارج وما هي العقبات التي تواجههم الآن،

فأنت تعلم على الرغم من شجاعتنا وحبنا للمغامرة من أجل فتات لقمة عيش أو بقايا أوراق شجر متساقطة أو حتى طائر ميت حديثًا

إلا أنه يموت منا الآلاف في لحظة عابرة مثل طيف ظهر فجأة ثم اختفى وأنت تعلم أيضًا أن أعمار الذكور قصيرة ونحن نحتاج لكل فرد من أفرادنا حاليًا للخروج من الأزمة.

رد عليها الحكيم ليظهر لها معاونته قائلًا :وأنا أيضًا رهن إشارتك يا مولاتي فيما تطلبين وما تسندين إليّ من أعمال.

وبينما هما يتحدثان ويتفقدان كل شبر من المستعمرة النملية جاءها القائد مرة أخرى ولكن هذه المرة تختلف عن سابقتها

، جاء مسرعًا نحو الملكة ومنحنيًا وقال :مولاتي المعظمة والمبجلة إننا ربحنا معركة الطائر بدون خسائر تذكر، بل أن الحظ كان حليفنا لقد كان ذلك الطائر جريحًا وأنهكه التعب وهد كيانه

، فسار يتخبط في طريقه حتى اقترب من جنودنا فسقط وحينما فحصناه وجدناه ينازع الموت، وانتهزنا اللحظة المناسبة للانقضاض عليه ويتم الآن جلب ما نريده من طعام لتخزينه وبذلك نكون وفرنا على أنفسنا عناء البحث عن أقواتنا طيلة الشهرين التاليين ونستعد لمواجهة الشتاء بصدر تملأه النشوى بالإنتصار.

هنأت الملكة قائد جيشها وأبلغته بفرحها ووعدت قومها بزيادة حصة كل منهم من المخزون إذا سارعوا بجلب الضحية قبل أن تتعفن.

التفتت إلى الحكيم قائلة :أترى، أي من مخلوقات الله على أرضه يستفيد من الحي والميت غيرنا

....من الذي يعمل طوال الصيف ويخزن قوته حتى يحين الشتاء ...

من الذي يحفر تحت الأنقاض وداخل الأشجار وتحت التراب لحماية شعبه ورعيته من الأعداء غيرنا؟ من الذي يحذر أقرانه إذا وقع في شرك أو اختنق ببركة ماء سوانا؟

نحن معشر النمل نفخر بأننا مخلوقات ضعيفة جسمانيًا بجانب آخرين عمالقة وجبابرة

، لكننا في البأس والشدة والإنجاز أعتى من الجبال الراسخة كالأوتاد.

فكم من ضعيفٍ زان قومه وعشيرته بعقلِه وتدبيره وحكمته، وكم من قويٍّ صلب البنيان كان عار على فصيلتِه وإخوانِه لغدره بهم،

نعم إننا مخلصون، مدافعون، معاونون بعضنا البعض ولم يحدث أن خانت نملة أختها، أو أوشت بها، أو قتلتها ظلمًا، أو اعتدت على عرضها،

أو أموالها، أو حتى على إحتكار رأيها؛ فكلنا بمثابة نملة واحدة ولا ننكسر مهما عصف بنا الزمن ومهما كثرت وتطاولت علينا الشدائد.

*** * ***

تمـــــــــــــت

"القاهرة" 2030

انتهى عمل اليوم، والكل ينظر إلى زميله بنظرة الريب والتوجس أكثر من نظرة الود والتعاطف والتراحم، فلا تحية لأحد، ولا نقاش، ولا خلاف على شيء يذكر.

خرج" عبد الرحيم "من عملِه مثله مثل الكثيرين، يهيم على وجهه، ينظر دائمًا لأسفل، لعلّه يجد بطريقِه أحد الجنيهات، وهذا من رابع المستحيلات، فحالة البلاد من سوءٍ لأسوأ والجميع يمضي في طريقه على مضض من العيش والضنك، حتى مناجاة الله لم تعد تسري على لسان أحد.

أطرق" عبد الرحيم "يفكر بهدوءٍ وسط الضوضاء العارمة ووسط اللصوص الذين كثرت أعدادهم وقال لنفسه :ماذا بعد .... أيستمر الحال هكذا .... إن العالم أجمعه يتخبط في فساده وسطوة ذوي النفوذ ومن يملكون السلاح ... أهكذا هو العالم .... ألن تنتهي تلك الفوضى وهؤلاء الملاعين الأنجاس المسيطرون على تجارة الأعضاء، والمخدرات، والنساء ...هكذا بكل بساطة وعلى مرأى ومسمع من كل الدنيا؟

ليتني مت أو قتلت ... ليتني لم أتزوج ... والمصيبة الكبرى أن لدي ابنة في الثالثة عشر من عمرها، أخشى عليها من نفسي، لا أسمح لها بالخروج نهائيًا ومع إلغاء تعليم الفتيات وجلوسِهنّ بالبيتِ

أصبح كل شيء يسير عكس الإتجاه ... إن الذكر منهم لا يكاد تقع عيناه على إحداهن حتى يجن جنونه، ويفقد صوابه كأنه لمح شبحًا أو كائنًا خلاف الآدمية .وبذلك حدثت فجوة كبرى بين المقبول واللامقبول فاندمجوا معًا مكونين شيئًا مبتذلًا، خارجًا عن قوانين الكون.

أتمنى أن تتبدل الأحوال ذات يوم، أن يزول كل ذلك، أن يعم السلام مرة أخرى.

توافدت الأفكار على رأسه وهو يجر قدميه بثقل وقد أنهكه التفكير وعبء ما يحمل في صدره، لكنه أفاق فجأة على مشهد غريب يتوسط الشارع الذي يسكن فيه،

فقد وقع بصره على ثلاثة أشخاص يساعدون فتاة على النهوض بعد أن تم الإعتداء عليها، لكن الغريب بالأمر هو اهتمام الناس بها ، إن مثل تلك الحوادث من كثرة وقوعها، لم يعد يهتم بها أحد.

على كُلٍّ لم أشغل بالي، فأنا مثلي مثل الكثيرين هنا لن يفيد اهتمامي أو تدخلي بشيء.

وبينما هو يقترب أكثر وأكثر ألقى نظرة أخرى على المشهد قبل صعوده درج بيته، فتراءى له أن تلك الفتاة تشبه ابنته؛ فانتبه جيدًا مرة أخرى ليتيقن هذه المرة أن تلك الفتاة ابنته بلا شك.

ارتعد وجهه وانتفض قلبه بداخله كأنما رأى شبحًا، فهرول إليها حتى كاد أن يسقط وعندما اقترب منها وجثا على ركبتيه،

رأى وجهها الملائكي تبدل بوجه وملامح أخرى أقرب لمن يحتضر أو ينازع لدنو أجله فأخذ يمسح على خدها والدموع تتساقط منه

بغزاره وفي هذه اللحظة أفاق من نومه بغرفته المضاءة إضاءة خافتة وهو يشهق ويلهث والعرق يملأ وجهه.

جال بنظره في الغرفة ليتأكد أنه كان يحلم وقد اشتد عليه الحلم فتحول لكابوس مرعب ومخيف يختطف ابنته منه.

استغفر" عبد الرحيم "ربه مستعيذًا من هواجس الشيطان، نظر بجواره فإذا بزوجته تغط في النوم ولم تنتبه لما أصابه.

نهض" عبد الرحيم "من سريره ليطمئن على ابنته الوحيدة وعندما خرج من غرفته ونظر لباب غرفة ابنته، وجد غرفتها مضاءة ويخرج صوت ضعيف منها

، فاتجه نحوها على الفور وقام بفتح الباب فشاهد ابنته تستذكر دروسها وتقرأ بمادة الدراسات الاجتماعية عن التاريخ الإسلامي، وفتوحات القادة، وازدهار حضارة العرب

.قال الأب لابنته مبتسمًا :لقد تأخر الوقت ويجب عليك الخلود للنوم حتى تستطيع النهوض مبكرًا لأداء امتحانك المدرسي.

تنهدت الإبنة وقالت :لم أنته بعد يا أبي، كما أن تاريخ أمتنا وحضارتها من أروع ما كان، أتصدق يا أبي أننا ملكنا نصف العالم بقوة إرادتنا وعزيمتنا وإيمان قادتنا المنقطع النظير.

أتعلم أنه كانت تقام حروب ضارية بيننا وبين آخرين لمجرد تطاول أحد الملوك أو القادة بالألفاظ على حضارتنا وديننا، تنهدت الفتاة مرة أخرى واستطردت :لكن الآن

.....لا أعرف ماذا أقول، فلقد تبدّلت كل أوضاعنا رأسًا على عقب وذهبت أخلاقنا مع الريح تناعي وتندب حظ العرب والإسلام معًا

، ليتنا نتخلص من آثامنا جميعها ونحارب أنفسنا الضعيفة التي تداس تحت وطأة المال والأهواء.

ربت الأب على كتف ابنته وقال لها :إن الله حارس الكون ومدبر أفلاكه، وندعوه جميعًا أن يفرج كرب الإنسانية المعذبة.

طلب الأب من ابنته أن تغلق كتابها وتتجه إلى سريرها لإراحة جسدها وذهنها من التفكير وترك غيبيات الأمور، تجري كما شاء لها القدر أما ما بيدنا فلنعمل به وله.

قبل" عبد الرحيم "ابنته قبل خروجه من الغرفة وقد ارتاح قلبه بعد أن اطمئن عليها وأغلق الإضاءة، بعد أن ذهب عنه النوم نهائيًا تلك الليلة وجلس يفكر فيما حدث له حتى شقشقة الصباح:.

أحقًا قد يحدث الأمر بين عشيةٍ وضحاها، أخشى على أحبائي من هول ذلك اليوم وأحس بقربه ومشقته وصعوبة تحمله .

أثُرى تهاوى منطق العقل !ذهب الصبر ليحل محله الهوس والجنون ويدب اليأس في نفوس الخليقة .

كم أشتاق لرؤية العدل ونشره بين الناس، كم أتمنى لو تعود النفس البشرية لطهرها وصفائها ولكن ذلك من المحال.

فإبليس لا يكف يده عن اختلاق الفرقة والشتات بين بني البشر حتى تقوم الساعة وإلى أن تأتي فليرحمنا الله على مساوئ أنفسنا المتهالكة.

* * *

تمـــــــــــــت

"إلى ابنتي حياة"

لم أكن أتوقع أن أكتب تلك الرسالة لكِ يا حبيبتي وأنا بكامل قواي العقلية قبل أن يمسني شيئ من الجنون ....

عندما قرَأت حياة تلك الكلمات تساقط الدمع من عينيها؛ فلقد تذكرت ما مضى من حياتها التي طالما حاولت الهرب منها،

اليوم وبعد كل تلك السنوات تجد هذه الرسالة المحشورة داخل زجاجة بلورية صغيرة الحجم وموضوعة أعلى خزانة غرفة نوم والدتها المغلقة .

التي لم تفكر أن تدخلها من قبل، ولكن بعد رؤية أمها بالمنام تأخذ بيدها وتفتح لها باب الغرفة ثم تختفي فجأة...

للأسف لقد تكرر هذا المنام أكثر من مرة مما جعلها تتخلى عن قسمها وتدخل تلك الغرفة المغلقة لتجد ما لم يخطر لها على بال ويساعدها في كشف الحقيقة....

أكملت حياة قراءة الرسالة التي أصبحت بمثابة قدم وساق الحقيقة كلها، لقد أصبح زوجي صعب المراس هذه الفترة، يُقْبل على شرب جميع أنواع المكيفات ولا يهتم سوى بنفسه ومزاجه الغير معتدل دائمًا ....

ذات مرة دخل غرفة نومنا على عجلة من أمره، وقام بفتح خزانة الملابس ثم أزاحها جميعًا أرضًا ليبحث عن نقود قد أكون خبأتها أسفل قطعة من تلك الملابس الملقاة على الأرض .

لكنه لم يجد شيئًا يا عزيزتي ... أتعرفين لماذا ؟ لأنني وبكل بساطة أخذت الحيطة وأقدمت على حمايتنا وتأمين مستقبلنا فيما بعد فقمت بإخفاء ما يلزم إذا حدث ما لم أتوقعه.

لكنه لم يكُفْ وحاول أن يبحث أكثر من مرة وعندما لم يجد شيئًا قرر أن يسلك منحى آخر ...

بكل بساطة ووداعة العاشقين كان يدس لي المخدر في شرابي حتى لا أفيق أبدًا فيرتاح مني ....

أتعلمين يا عزيزتي أنه لم يتذكر ولو لمرة واحدة أنك ابنته وأن بيننا شيئًا أقدس من الحياة نفسها ....

لا تبكي فأنا أشعر بدمعك المترقرق يتساقط بغزارة ... أنت أغلى وأثمن جوهرة حَصلتُ عليها في حياتي ..... تمسكي لتعرفي بقية ما حدث معي حتى لا تطلقي الحكم القاسي عليّ.

ابتدع والدك نوع آخر وأسلوب جديد للتعامل معي، فقام بشراء دواء خاص بمرضى الزهايمر واستخدمه معي ليقضي عليّ ويتملك كل شيء....

واستخدمه بانتظام حتى كدت بالفعل أن أنسى بعض الأشياء .... حتى الخادمة نسيت شكلها وملامحها .. ذات مرة دخلت عليّ الغرفة ليلًا لتطمئن على حالي، ولما كنت لا أتذكرها جيدًا ... فزعت وصرخت طلبًا للنجدة، وجِئتِ أنتِ مسرعة إليّ من غرفتك لا تدرين أي جرم وقع .... حاول الجميع تهدأتي وقاموا بإعطائي المخدر حتى خارت قواي ورحت في سباتٍ عميق.

في ذلك اليوم انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، لقد أفقت قبل الموعد المحدد لي في الثانية بعد منتصف الليل وكانت رأسي تدور وأنا أحاول النهوض؛ فقد كنت أحتاج إلى كوب من القهوة لأسترد عقلي قليلًا .....

وعندما تلمست طريقي وأسندت جسدي المتهالك وأنا أخطو لأسفل ترامت إلي أذني بعض الكلمات التي أيقظتني على الفور

.....إنه والدك .... يتحدث مع أخرى ويخبرها أن الوقت المحدد اقترب وسوف أتهاوى من تلقاء نفسي وحينها سيؤول إليه كل شيء .... كأنها الصاعقة ضربت برأسي .... ترنحتُ قليلًا لكننى قررت الصمود مهما حدث.

هبطتُ الدرج مسرعة وقمت بمواجهته، فاشتعل الموقف بيننا .... لم يتمالك هو أعصابه وقام بصفعي أكثر من مرة، لأسقط على أرضية الردهة ولكي أستعيد بعض توازني اتكأتُ على المنضدة.

....وكانت تستقر عليها إحدى المزهريات فالتقتطها على الفور وقمت بضرب رأس والدك من الخلف حينما كان يهم بمغادرة المنزل.....

سكبت حياة المزيد من الدمع جراء قراءتها تلك الرسالة التى ذكرتها ببعض ما مضى من أحداث جسام كانت السبب فى جعل البيت خاوٍ ... متهالك كبيت الأشباح ... كئيب المشهد من الداخل والخارج من دون أصحابه، سوى مالكته الشابة التى ترثه الآن.

انتهت تلك الرسالة وبدأت حياة تبحث عن الأخرى فقد كتبت والدتها ملحوظة على ظهر الورقة بأن الرسائل ليست معًا في موضع واحد، فعليها أن تبحث في أرجاء الغرفة حتى تجد ضالتها ولتكن فرصة للتعقل والتدبر فيما تقرأ ...

ظلت تبحث وقامت بفتح جميع الخزانات حتى وجدت إحدى عبوات الدواء فقامت بفتحها لتجد رسالة أخرى تكمل بها طريق الحقيقة الغامض ..... فبدأت فى قراءتها على عجلة من أمرها وأمها تقول ....

ضربت رأسه يا عزيزتى، وبكل قوتي وكررت الضربات حتى خرّ صريعًا أمامي والدم يسيل من رأسه، فجلست بجواره برهة من الوقت لأسترد عقلي مرة أخرى ....

حاولت إفاقته ... توسلت إليه أن يعود إليّ مرة أخرى ...

لم تفلح جميع محاولاتي فبكل بساطة قد تركني وترك الدنيا التي كانت جل شاغله ....

صرختُ من فزعي على مشهده وظللت أصرخ حتى تنبه المقيمين بالبيت وأنتِ أيضًا لتشاهدوا المنظر عن قرب وتشهدوا على اقترافي الجريمة الشنعاء ....

قام الجيران باستدعاء الشرطة وعربة الإسعاف وأنتِ يا عزيزتي تسمرت قدماك بالدرج وظللتى تبكين وقد ضممتى ركبتيكِ لصدرك ....منذ ذلك اليوم وأنا أشعر أني فقدت زوجي وابنتي الوحيدة بيوم واحد....

خرجت وتركتك ... تركتك بمفردك في تلك الليلة المشئومة .... وترسب في ذهنك المشهد ... ولم تُجدِ محاولاتي معك على نسيانه

عندما دخلت المشفى واكتشفوا كم الدواء المترسب بأوردتي قاموا بإخطار الشرطة بتقرير مفصل عن حالتي وبرأت من تهمتي وكم من سعادة غمرتني عندما وصلني الخبر .... فرحتي بيوم رجوعي إليك يا عزيزتي

....لكنك لم تستقبليني كأم لك .... لم تستقبليني كشخص حتى تعرفتي عليه يومًا .... كانت تلك اللحظة هى الأقسى في حياتي كلها ...تمنيت الموت

....ابنتي الوحيدة تلفظني ... تنكرني .... لا تريدني .... لكنني حاولت معك وبشتى الطرق أن تعود علاقتنا كسابق عهدها .... لم يحدث ذلك .... لم تعطني الفرصة .... حاولت معك أن تعودي لحضن أمك فأنا كنت بحاجة إليك اكثر من حاجتك أنتِ لي.....

لم تستطع حياة مواصلة قراءة الرسالة الثانية وظلت تبكي حتى المساء ويومها لم تذق طعامًا ولم يدخل جوفها شيئ .... تعكر مزاجها عن ذى قبل ... لم تتوقع ما مضى كما تقرأه الآن وبرؤية مغالطة لما ظل بذهنها .... يومها ولأول مرة تدثرت بثوب لأمها وراحت في سبات عميق بسرير أمها الذي لم تقربه منذ الحادثة المفجعة.

في الصباح لم تصبر حياة لتبديل ملابسها أو حتى لأخذ حمام طويل يفيق عقلها ... بل قامت على الفور باستكمال قراءة رسائلها وأخذت تبحث عن رسالة ثالثة توضح لها المبهم أكثر وأكثر .....

وتناهى لذاكرتها أن أمها كانت دائمًا تردد أمامها أن تحتفظ بمرآة غرفتها ... فهي تفضلها عن أي شيء آخر، فاتجهت حياة على الفور تجاه المرآة وأخذت تبحث خلفها حتى وجدت الرسالة الأخيرة من أمها .. قبل أي شيء يا عزيزتي سأوضح لك حبي لتلك المرآة .

المرآة بصفة عامة هي الروح الثانية للإنسان لأنها وبكل بساطة تذكره بنفسه ... يقف أمامها إما مزهوًّا بنفسه .... متعجّبًا من أفعاله ... أو ليكتشف حقيقة أمره وسر حياته، فهي تعتبر ضميره الغائب أو الحاضر حسب قراره الذي يتخذه.

ولنستكمل معًا بقية الحديث يا عزيزتى .... ولما يئستُ من محاولاتي لإرجاعك إليّ قررتُ أن أتجه وبنفسي وعن قناعة تامة .....في تناول أدوية الزهايمر .... لك أن تتخيلي يا عزيزتي كم كنت محبطة .. بائسة .... تعيسة ... كي أتخذ هذا القرار ولا رجعه فيه....

لأتناسى واقعي المؤلم .. أرفضه بطريقتي .... أعترض على حقيقته المرة ..... لقد عانيت كثيرًا لأثبت وفائي وحبي لابنتي الوحيدة وقبل أن أتعاطى أي دواء .... وبعدها بفترة بدأت تظهر علي أثر التعاطي

...أتتذكرين حينما كنت بمفردي بمطبخ منزلنا وكدت أن أشعل النار بالبيت كله جراء تركي لنار الموقد مشتعلة دون أن أتذكر

...وبعدها بفترة تذكرت الحدث بمفردي وتعجبت من الأمر ... لا يهم الآن، لقد قمت بكتابة تلك الرسائل ودسستها بأماكن متفرقة من غرفتي علك تبحثين ذات يوم وتمضي الكثير من الوقت بالغرفة فيملأ عبيرك الذي أفتقده تلك المساحة الضيقة التي كنت أعتكف بها حتى دخولي المشفى مرة أخرى وبلا عودة.....

فلتسامحيني يا عزيزتي .... فلتغفري لي تصرفي .... مهما حدث ومهما بدر منك ستظلين طفلتي المدللة الغالية للأبد ..... والدتك المضطهدة دائمًا..

أيقنت حياة الآن وبعد مرور تلك السنوات بحب أمها لها ولكنها لا تستطع إخبارها .... لقد توفيت والدتها منذ ما يقرب من العامين ... ليتها عثرت على تلك الرسائل قبل ذلك ... لكانت الأوضاع تبدلت

...لكانت أحضرت أمها لتمضية ما بقى لها فى حضن ابنتها الناكرة لها ولأفعالها ... ولهدأت نفسها المعذبة التي تلومها ولسوف تلق باللوم عليها حتى الأبد.....

تمـــــــــــــــــــــــــت

الكهف المهجور مدرج ضمن هذا الكتاب لكنه نشر منفصل بالموقع الخاص بساحر الكتب

فور ريد

فهرس القصص

– 1غدر ذات ليلة

– 2جارية موسى

– 3قراقوش

– 4طعم الخيانة

– 5بتاح الحكيم

– 6خالد ولدي

– 7دبيب نملة

– 8القاهرة2030